

# تَفْسِيرُ الْمُرَائِغِيِّ

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي  
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية  
بكلية دارالعلوم سابقاً

---

الجزء الثامن والعشرون

---

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

---

حقوق الطبع محفوظة

## الجزء الثامن والعشرون

### سورة المجادلة

هي مدنية وعدة آياتها ثنتان وعشرون ، نزلت بعد سورة المنافقين .  
ووجه اتصالها بما قبلها :

- (١) أن الأولى ختمت بفضل الله ، وافتتحت هذه بما هو من هذا الوادي .
- (٢) أنه ذكر في مطلع الأولى صفاته الجميلة ومنها الظاهر والباطن — وذكر في مطلع هذه أنه سمع قول المجادلة التي شكت إليه تعالى .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ  
يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ  
نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ ، إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ  
مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ  
مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ،

ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ  
شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتِمَّاسَا ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ  
مِسْكِينًا ، ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ  
عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) .

### شرح المفردات

سمع : أى أجاب وقيل ، كما يقال سمع الله لمن حمده ، والتي تجادل في زوجها : هى  
خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية ، وتجادلك : أى تراجعك الكلام في أمره وفيما  
صدر منه في شأنها ، وتشتكى إلى الله : أى تبث إليه ما انطوت عليه نفسها من غم  
وهم وتضرع إليه أن يزيل كربها ، وزوجها : هو أوس بن الصامت أخو عبادة  
ابن الصامت ، والسمع : صفة تدرك بها الأصوات أثبتها الله تعالى لنفسه ، والتحاور :  
المراودة في الكلام ، والكلام المردد ، كما يقال كلمته فما رجع إلى حواراً : أى مارد على  
بشئ ، والظاهر : لغة من ظاهر ؛ ويراد به معان مختلفة باختلاف الأغراض فيقال  
ظاهر فلان فلانا : أى نصره ، وظاهر بين ثوبين : أى لبس أحدهما فوق الآخر ،  
وظاهر من امرأته : أى قال لها أنت على كظهر أمي ، أى محرمة ، وقد كان هذا أشد  
طلاق في الجاهلية ، والظاهر شرعا : تشبيه المرأة أو عضو منها بامرأة محرمة نسباً  
أو رضاعاً أو مصاهرة بقصد التحريم لا بقصد الكرامة ، ولهذا المعنى نزلت الآية ،  
«إِنَّ أُمَّهَاتَهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدَنَّهُمْ» : أى ما أمهاتهم ، والمنكر ما ينكره الشرع والعقل  
والطبع ، وزوراً : أى كذباً ، فيتحرير رقبة : أى عتق عبد أو جارية ، أن يتماسا : أى  
يجتمعما اجتماع الأزواج ، متتابعين : أى متواليين ، فمن لم يستطع : أى لم يقدر على  
ذلك لكبر سن أو ضعف أو شبق إلى النساء ، حدود الله : أى أحكام شريعته ،  
وللكافرين : أى للذين يتعدون الأحكام ولا يعملون بها .

## المعنى الجملى

روى أن هذه الآيات الأربع نزلت فى خولة بنت ثعلبة وزوجها أوس بن الصامت ، ومن حديث ذلك : « أن أوسا كان شيخا كبيرا قد ساء خلقه ، فدخل على خولة يوما فراجمته بشيء فغضب ، فقال لها : أنت على كظهر أُمى ( وكان الرجل فى الجاهلية إذا قال ذلك لامراته حرمت عليه ) وكان هذا أول ظهار فى الإسلام ، فندم لساعته ، فدعاها ( طلب ملامستها ) فأبت ، وقالت : والذى نفسى بيده لا تنصل إلى وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله ، فأنت الرسول صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن أوساً تزوجنى وأنا شابة مرغوب فى ، فلما خلا سنى ونثرت بطنى ( كثر ولدى ) جعلنى عليه كأمه إلى غير أحد ، فإن كنت تجد لى رخصة تنعشنى بها وإياه فخذنى بها ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله ما أمرت فى شأنك بشيء حتى الآن ، وفى رواية ما أراك إلا قد حرمت ، قالت : ماذا كرت طلاقا ، وجادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرارا ثم قالت : اللهم إنى أشكو إليك شدة وحدتى ، وما يشق على من فراقه ، وفى رواية أنها قالت : أشكو إلى الله فاقى وشدة حالى ، وإن لى صبية صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا ، وإن ضممتهم إلى جاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول : اللهم إنى أشكو إليك ، اللهم فأنزل على لسان نبيك ، وما برحت حتى نزل القرآن فيها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا خولة أبشرى ، قالت خيرا فقرأ عليها « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » الآيات .

روى البخارى فى تاريخه أنها استوقفت عمر يوما فوقف ، فأغلظت له القول ، فقال رجل يا أمير المؤمنين ما رأيت كاليوم ، فقال رضى الله عنه ، وما يمنعنى أن أستمع إليها وهى التى استمع الله لها ، فأنزل فيها ما أنزل « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ » الآيات . والشارع اعتبر الظهار يمينا وأوجب فيها الكفارة عند إرادة الملامسة بأحد أمور ثلاثة على الترتيب الآتى :

- (١) تحرير رقبة (عتق عبد أو جارية) .  
 (٢) صيام شهرين متواليين إن لم يجد ما يعتقه .  
 (٣) إطعام ستين مسكيناً إن لم يستطع الصوم الكبير أو مرض لا يرجى زواله ،  
 لكل مسكين نصف صاع من بر (رطل وثلاث) أو صاع من تمر أو شعير .

### الإيضاح

(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) أى قد قبل الله شكوى التي جادلت رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن زوجها ، وبثت أمرها إلى ربها ، وسمع ما سمع من تحاورها مع رسوله ، والله سميع لما يقال ، خبير بحال عباده ، فأنزل فيها ما أزال غصتها ، وفرج كربتها ، وأقر به عينها ، وبل ريقها ، وأرجع إلى كفها صبيتها ، الذين كانوا مصدر شقوتها ، وبهم اعتلت (تعالت واحتجت) على رسوله .

وقد فصل ما أنزل من الحكم في حادتها وأمثالها فقال :

(الذين يظاهرون منكم من نسائهم) أى الذين يقع منهم الظهار من نسائهم ، فيقول أحدهم لامرأته : أنت على كظهر أمى ، يريد أنك على حرام ، كما أن أمى على حرام — مخطئون فيما صنعوا .

(ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) أى ما نسأوهم أمهاتهم على الحقيقة فكيف يجعلونهن كذلك ، ما أمهاتهم إلا من ولدنهم ، فلا ينبغي تشبيههن بهن .

ثم زاد الأمر إيضاحاً وبالغ في الاستهجان فقال :

(وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً) أى وإنهم ليقولون قولاً منكراً لا يحيزه شرع ، ولا يرضى به عقل ، ولا يوافق عليه ذوا طبع سليم ، فكيف تشبه من يسكن إليها وتسكن إليه وجعل بينه وبينها مودة ورحمة ، وصلة خاصة لا تكون لأم ولا لأخت ، بمن جعل صلتها بابنها صلة الكرامة والحنو والإجلال والتمظيم ، إلى

أن الرجل قوام على المرأة له حق تأديبها إذا عوجت، وهجرانها في المضاجع إذا جمحت ولم يُعْط ذلك لابن ليعامل به أمه ، فهذا زور وبهتان عظيم .

وغير خاف مافي هذا من الاستهجان ، وشديد التشنيع على صدور هذا القول منهم .

( وإن الله لعفوٌ غفور ) لما سلف من الذنب متى تاب فاعله منه .

ثم فصل حكم الظهار فقال :

( ١ ) ( والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسا ) أى والذين يقولون هذا القول المنكر ثم يتداركونه بنقضه ويرجعون عما قالوا فيريدون المسيس فعلى كل منهم عتق عبد أو أمة قبل التماس إن كان ذلك لديه . ثم بين السبب في شرع هذا الحكم فقال :

( ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ) أى إنه شرع لكم حكم الكفارة عند طلب العودة إلى المسيس ، ليكون ذلك زاجرا لكم عن ارتكاب المنكر ، فإن الكفارة تمنع من وقوع الجرم ، والله خبير بأعمالكم لا يخفى عليه شئ منها ، وهو مجازيكم بها ، فاتموا عن قول المنكر ، وحافظوا على ما شرع لكم من الحدود ، ولا تخلوا بشئ منها .

( ٢ ) ( فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتأسا ) أى فمن لم يجد رقبة ولا ثمنها فاضلا عن قدر كفايته ؛ فالواجب عليه صيام شهرين متتابعين من قبل التماس ، فإن أفطر يوما من الشهرين ولو اليوم الأخير لعذر أو مرض أو سفر لزمه الاستئناف بصوم جديد لزوال التتابع .

( ٣ ) ( فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ) أى فمن لم يستطع صيام الشهرين المتتابعين لكبر سن أو مرض لا يرجى زواله — فعليه إطعام ستين مسكينا لكل منهم نصف صاع من بُرٍّ ، أو صاع من شعير أو تمر قبل التماس أيضا . ( ذلكم لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ) أى ذلك

الذى بينناه لكم من وجوب الكفارة حين الظهار ، لتقروا بتوحيد الله وتصدقوا رسوله وتنتهوا عن قول الزور والكذب ، وتنبهوا ما حده الدين من حدود ، وبينه لكم من فرائض ، وللجاحدين بهذه الحدود وغيرها من فرائض الله عذاب مؤلم على كفرهم بها .

وأطلق اسم ( الكافر ) على متعمد هذه الحدود تغليظا للزجر كما قال في المتهاون في أداء فريضة الحج « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كَبِتُوا كَمَا كَبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ يَبِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنُسُوهُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٦) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧) .

### شرح المفردات

يحادون : أى يشاقون ويعادون ، وأصل الحادّة الممانعة ؛ ومنه قيل للبواب حداد ، كبتوا : أى خذلوا ، وقال المبرد : كبت الله فلانا إذا أذله ، والمردود بالذل : مكبوت ، آيات يبينات : أى حججا وبراهين مبينة لحدود شرائعنا ، مهين : أى يلحق بهم الهوان والذل ، فينبئهم بما عملوا : أى يخبرهم بأعمالهم توبيخا وتقريعا لهم ، أحصاه الله : أى أحاط به عدّا لم يغيب عنه شيء منه ، شهيد : أى مشاهد لا يخفى عليه شيء .

ألم تر : أى ألم تعلم ، ما يكون : أى ما يوجد ، والنجوى : التناجى والمسارة كما قال :  
« لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ » وقد يستعمل فى التناجين كما قال : « وَإِذْهُمْ  
نَجْوَى » أى أصحاب نجوى .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أحكام كفارة الظهار وبين أنه إنما شرعها تغليظا للناس حتى  
يتروا الظهار ، وقد كان ديدنهم فى الجاهلية ، ويتبعوا أوامر الشريعة ، ويلين قيادهم  
لها ، ويخلصوا لله ربهم فى جميع أعمالهم ، فتصفو نفوسهم ، وتزكو بصلاح الأعمال .  
أردف هذا ببيان أن من يشاق الله ورسوله ويمصى أوامره ، يلحق به الخزى والهوان  
فى الدنيا وله فى الآخرة العذاب المهيئ فى نار جهنم ؛ ثم أعقب ذلك بالوعيد الشديد ،  
فبين أنه لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، فهو عليم بمناجاة التناجين ،  
فإن كانوا ثلاثة فهو رابعهم ، وإن كانوا خمسة فهو سادسهم ، وإن كانوا أقل من ذلك  
أو أكثر فهو معهم أينما كانوا ، فلا تظنوا أنه تخفى عليه أعمالكم ، وسينبئكم بها عند  
العرض والحساب ، وحين ينصب الميزان ، فتلقون جزاء ما كسبت أيديكم ،  
وتندمون ولات ساعة مندم .

## الإيضاح

( إن الذين يحادون الله ورسوله كذبوا كما كبت الذين من قبلهم ) أى إن الذين  
يختارون لأنفسهم حدودا غير ما حده الله ورسوله ، ويضعون شرائع غير ما شرعه ،  
سيلحقهم الخزى والنكال فى الدنيا كما لحق من قبلهم من كفار الأمم الماضية الذين  
حادوا الله ورسوله ، وقد تحقق ذلك يوم الخندق .  
وفى هذا بشارة المؤمنين بظهورهم على عدوهم ونصر الله لهم .

كما أن فيه وعيدا عظيما للملوك وأمراء السوء الذين وضعوا قوانين وشرائع وضعية غير ماثرة لله ، وألزموا رعاياهم العمل بها ، والجرى على نهجها ، وعينوا لذلك قضاة يحكمون بها ، ونبذوا ما جاء في شرعهم ، والله يقول : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » .

نعم إنه لا بأس بالقوانين السياسية إذا وقعت باتفاق ذوى الآراء من أهل الحل والعقد على وجه يكون به انتظام شمل الجماعات ، إذا كانت لا تخالف في أحكامها روح التشريع الديني كتمتين مراتب التأديب للزجر على المعاصي ، والجنايات التي لم ينص الشارع فيها على حد معين ، بل فوض الأمر فيها للإمام ، وليس في ذلك محادة لله ورسوله ، بل فيها استيفاء لحق الله على الوجه الأكمل .

(وقد أنزلنا آيات بينات) أى وكيف يفعلون ذلك وقد أقننا دلائل واضحات تبين معالم الشريعة وتوضح حدودها ، وتفصل أحكامها ، وتبين سرّ تشريعها ؟ فلا عذر لهم في مخالفتها ، والانحراف عن سننها .

(وللكافرين عذاب مهين) أى وللجاحدين بتلك الآيات عذاب يذهب بعزهم وكبرياتهم .

والخلاصة — إن هؤلاء الجاحدين عذابا في الدنيا بالخزى والهوان ، وعذابا في الآخرة في جهنم وبئس القرار .

(يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا ، أحصاه الله ونسوه ، والله على كل شيء شهيد) أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيخبرهم بما كسبت أيديهم تشهيرا لهم وخزيا على رؤوس الأشهاد ، والله قد حفظه وضبطه وهم قد نسوه ، والله شهيد على كل شيء ، فلا يغيب عنه شيء ، ولا ينسى شيئا .

وفى هذا شديد الوعيد والتقريع العظيم والتنذيم ، ليعرفوا أن ما حاق بهم من العذاب ، إنما كان من جرّاء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

ثم أكد ما سبق من إحاطة علمه تعالى بكل شىء فقال :

(ألم تر أن الله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) أى ألم تعلم أنه تعالى يعلم ما فى السموات وما فى الأرض ، فلا يتناجى ثلاثة إلا والله معهم ويعلم ما يقولون وما يدبرون ، ولا خمسة إلا وهو سادسهم يعلم ما به يتناجون ، ولا نجوى أكثر من هذه الأعداد ولا أقل منها إلا وهو عليم بها . وعليم بزمانها ومكانها لا يخفى عليه شىء من أمرها .

وإنما خص هذه الأعداد ، لأن أقل ما لابد منه فى المشاورة التى يكون الغرض منها تدبير المصالح العامة — ثلاثة فيكون الاثنان كالمتنازعين نقيضاً وإثباتاً ، والثالث كالحكم بينهما ، وحينئذ تكمل المشورة ويتم الغرض ، وهكذا فى كل جمع اجتمعوا للمشورة لابد من واحد يكون حكماً مقبول القول ، ومن ثم يكون عدد رجال المشورة فرداً كما جاء فى الآية ونحوها قوله : « أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » وقوله : « أَلَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَنَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ؟ بَلَى وَرُسُلُنَا لَتَهِيمٌ يَكَتُبُونَ » .

(ثم ينبههم عما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شىء عليم) أى ثم ينبى هؤلاء المتناجين بما عملوا من عمل يحبه أو يسخطه يوم القيامة ، وإنه لعليم بنجواهم وأسرارهم لا تخفى عليه خافية من أمرهم .

وقد علمت أن هذا الإنباء إنما هو للتنديم وزيادة التقريع والتوبيخ على مرأى ومسمع من أهل الموقف ، فيكون ذلك أنكى وأشد إيلاماً لهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْأَنفِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ

اللَّهُ ، وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ  
يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا  
بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ ، وَتَنَاجَوْا بِالْبَرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ  
الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩) إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٠) .

### شرح المفردات

الذين نهوا عن النجوى : هم اليهود والمنافقون ، بالإثم : أى بما هو معصية وذنب ،  
والعدوان : الاعتداء على غيرهم كمعصية الرسول ومخالفته ، لولا يعذبنا الله : أى هلا  
يعذبنا بسبب ذلك ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ : أى عذاب جهنم كاف لهم ، يصلونها : أى  
يقاسون حرَّها .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه عليم بالسر والنجوى ، وأنه لا تخفى عليه خافية من  
أمرهم ، فهو عليم بما يكون من التناجى بين الثلاثة والخمسة والأكثر والأقل ،  
ومجازيهم على ما يكون به التناجى -- خاطب رسوله معجَّباً له من اليهود والمنافقين  
الذين نهوا عن التناجى دون المؤمنين ، فعادوا لما نهوا عنه ، وما كان تناجيهم إلا  
بما هو إثم وعدوان على غيرهم ، ثم ذكر أنهم كانوا إذا جاءوا الرسول حيَّوه بغير  
تحية الله ، فيقولون له : السام عليك ( يريدون الموت ) ثم يقولون فى أنفسهم : لو كان  
رسولاً لعذبنا الله للاستخفاف به . وإن جهنم لكافية جد الكفاية لعذابهم : ثم نهى  
المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم ، بل يتناجون بالبر والتقوى ؛ ثم بين أن التناجى  
بالإثم والعدوان من الشيطان ولن يضرهم شئ منه إلا بإذن الله ، فعليه فليتوكلوا .

## الإيضاح

(ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه) « روى أن اليهود كانوا إذا مر بهم أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم جلسوا يتناجون فيما بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكره ، حتى إذا رأى ذلك خشيمهم ، فترك طريقهم ، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فلم ينتهوا وعادوا إلى النجوى فأنزل الله الآية » .  
ثم بين ما به يتناجون فقال :

(ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) أى وهم يتحدثون فيما بينهم بما هو إثم في نفسه ووباله عليهم ، وبما هو تعدٍ على المؤمنين ، وتواص بمخالفة الرسول صلوات الله وسلامه عليه .  
ثم ذكر جرماً آخر يقع منهم فقال :

(وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) روى البخارى ومسلم وغيرها عن عائشة « أن ناساً من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك يا أبا القاسم ، فقال عليه السلام : وعليكم ، قالت عائشة : وقات : عليكم السام ولعنكم الله وغضب عليكم ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : يا عائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش ، فقات : ألا تسمعهن يقولن السام ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : أو ما سمعت ما أقول : وعليكم ؟ فأنزل الله تعالى (وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ) الآية » .

(ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) أى يفعلون هذا ويقولون ما يحرفون من الكلام وإيهام السلام وهم يريدون شتمه ، ويحدثون أنفسهم أنه لو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول ، لأن الله يعلم ما نسرره ، فلو كان نبياً حقاً لعاجلنا بالمعقوبة في الدنيا فردّ الله عليهم بقوله :

(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) أى وإن جهنم وما فيها من العذاب الأليم لكافية لعقابهم ونكالهم ، وقد أجل عذابهم إلى هذا اليوم .

ثم قال تعالى مؤدبا عباده المؤمنين ألا يكونوا مثل اليهود والمنافقين فقال :  
 (يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول)  
 أى إذا حدث منكم أيها المؤمنون تناج ومسارة في أئديتكم وخلواتكم ، فلا تفعلوا كما  
 يفعل أولئك الكفار من أهل الكتاب ومن ملأهم على ضلالهم من المنافقين .  
 (وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون) أى وتناجوا بما هو خير  
 واتقوا الله فيما تأتون وما تذكرون ، فإليه تحشرون فيخبركم بجميع أعمالكم وأموالكم التى  
 أحصاها عليكم ، وسيجزىكم بها .

ثم بين الباعث لهم على هذه النجوى والمزى لهم ذلك فقال :  
 (إنما النجوى من الشيطان) أى إنما التناجى بالإثم والعدوان من وسوسة  
 الشيطان وتزيينه .

ثم ذكر السبب الذى حدها إلى ذلك فقال :  
 (ليحزن الذين آمنوا وليس بضارهم شيئا إلا يأذن الله) أى إنما فعل ذلك  
 يسوء الذين آمنوا بإيهاهم أن ذلك فى نكبة أصابتهم ، وليس الشيطان بضار  
 بالمؤمنين شيئا إلا بإرادة الله ومشيئته .

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى إن ما يتناجى به المنافقون مما يحزن المؤمنين  
 إن وقع ، فإنما يكون بإرادة الله ومشيئته ، فلا يكثرن المؤمنون بتناجيههم ، وليتوكلن  
 على الله ولا يحزنن .

وقد وردت السنة بالنهى عن التناجى إذا كان فى ذلك أذى لمؤمن . أخرج  
 البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 قال : « إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون الثالث إلا بإذنه ، فإن ذلك يحزنه » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا  
يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ، وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَاَنْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١) .

### شرح المفردات

تفسحوا : أى توسعوا وليفسح بعضكم عن بعض ، من قولهم : افسح عني أى تفح ،  
يفسح الله لكم : أى فى رحمته ويوسع لكم فى أرزاقكم ، انشروا : أى انهضوا للتوسعة  
على المقبلين ، فانشروا أى فانهضوا ولا تتباطئوا ، يرفع الله الذين آمنوا : أى يرفع  
منزلتهم يوم القيامة ، ويرفع الذين أوتوا العلم درجات ، أى ويرفع العالمين منهم خاصة  
درجات فى الكرامة وعلو المنزلة .

### المعنى الجملى

بعد أن نهى عباده المؤمنين عما يكون سبباً للتباغض من التفاجى بالإنهم  
والعدوان — أمرهم بما يكون سبب التواد والتوافق بين بعض المؤمنين وبعض :  
من التوسع فى المجالس حين إقبال الوافد ، والانصراف إذا طلب منكم ذلك .  
فإذا فعلتم ذلك رفع الله منازلكم فى جناته ، وجعلكم من الأبرار الذين لاخوف  
عليهم ولا هم يحزنون .

### الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا )  
أى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بالله وصدقوا برسوله ، إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ  
أَوْ فِي مَجَالِسِ الْقِتَالِ ، فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ فِي مَنَازِلِكُمْ فِي الْجَنَّةِ .

أخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حبان قال : « كان صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة في الضُّفَّة وفي المكان ضيق ، وكان يكرم أهل بدر من المهاجرين والأنصار ، فجاء ناس منهم ثابت بن قيس وقد سُبِقُوا إلى المجالس ، فقاموا حيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، فرد النبي صلى الله عليه وسلم ثم ساءوا على القوم فردوا عليهم ، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يوسع لهم ، فلم يفسحوا لهم ، فشق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لبعض من حوله : قم يا فلان ، قم يا فلان ، فأقام نفرًا بمقدار من قدم ، فشق ذلك عليهم ، وعرفت كراهيته في وجوههم ، وطعن المنافقون وقالوا : والله ما عدل على هؤلاء ، إن قوما أخذوا بمجالسهم وأحبوا القرب منه ، أقامهم وأجلس من أبطأ عنه فنزلت الآية . »

وقال الحسن : كان الصحابة يتشاحون في مجالس القتال إذا اصطفوا للحرب ، فلا يوسع بعضهم لبعض رغبة في الشهادة ، ومن الآية نعلم :

(١) أن الصحابة كانوا يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه ، لما فيه من الخير العميم ، والفضل العظيم ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : « ليليني منكم أولو الأحلام والنهى » .

(٢) الأمر بالتفسيح في المجالس وعدم التضام فيها متى وُجد إلى ذلك سبيل ، لأن ذلك يدخل المحبة في القلوب ، والاشتراك في سماع أحكام الدين .

(٣) إن كل من وسع على عباد الله أبواب الخير والراحة ، وسع الله عليه خيرات الدنيا والآخرة .

وعلى الجملة فالآية تشمل التوسع في إيصال جميع أنواع الخير إلى المسلم وإدخال السرور عليه ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام « لا يزال الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه » .

( وإذا قيل انشزوا فانشزوا ) أى وإذا دعيتم إلى القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقوموا ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يؤثر الانفراد أحيانا لتدبير شئون الدين ، أولاداء وظائف تخصصه لا تؤدى أولا يكمل أداؤها إلا بالانفراد .

وقد عمووا هذا الحكم فقالوا : إذا قال صاحب مجلس لمن في مجلسه قوموا ينبغي أن يجاب .

ولا ينبغي لقادم أن يقيم أحداً ليجلس في مجلسه ؛ فقد أخرج مالك والبخارى ومسلم والترمذى عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقيم الرجل الرجل من مجلسه ، ولكن تفسحوا وتوسعوا » .

( يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ) أى يرفع الله المؤمنين بامتثال أوامره وأوامر رسوله ، والعالمين منهم خاصة درجات كثيرة في الثواب ومراتب الرضوان .

والخلاصة — إنكم أيها المؤمنون إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل ، أو إذا أمر بالخروج فخرج ، فلا يظن أن ذلك نقص في حقه ، بل هو رفعة وزيادة قربى عند ربه ، والله تعالى لا يضيع ذلك بل يجزى به في الدنيا والآخرة ، فإن من تواضع لأمر الله رفع الله قدره ، ونشر ذكره .

( والله بما تعملون خبير ) أى والله بأعمالكم ذوخبرة لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي ، وهو مجازيكم جميعاً بأعمالكم ، فالحسن بإحسانه ، والمسيء بالذى هو أهله أو يعفو .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) ءَأَشْفَقْتُمْ أَنَّ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ،

فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا  
اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٣) .

## شرح المفردات

ناجيتم الرسول : أى أردتم مناجاته والحديث معه ، فقدموا بين يدي نجواكم  
صدقة : أى فتصدقوا قبها ، أظهر : أى أزكى ، لتعويد النفس بذل المال وعدم الضن  
به ، أشفقتم : أى خفتم ، تاب الله عليكم : أى رخص لكم فى المناجاة من غير  
تقديم صدقة .

## المعنى الجملى

علمت من الآية السابقة أن المؤمنين كانوا يتنافسون فى القرب من مجلس  
رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع أحاديثه ولمناجاته فى أمور الدين ، وأكثروا  
فى ذلك حتى شقَّ عليه صلى الله عليه وسلم وشغلوا أوقاته التى يجب أن تكون موزعة  
بين إبلاغ الرسالة والعبادة ، والقيام ببعض وظائفه الخاصة ، فإنه بشر يحتاج إلى قسط  
من الراحة ، وإلى التجنُّث إلى ربه فى خلواته .

من أجل هذا نزلت هذه الآيات أمرة بوجوب تقديم الصدقات قبل مناجاة  
الرسول والحديث معه ، لما فى ذلك من منافع ومزايا :

(١) إعظام الرسول وإعظام مناجاته ، فإن الشئ إذا نيل مع الشقة استُعْظِمَ ،  
وإن نيل بسهولة لم يكن له منزلة ورفعة شأن .

(٢) نفع كثير من الفقراء بتلك الصدقات المقدمة قبل المناجاة .

(٣) تمييز المنافقين الذين يحبون المال ويريدون عرض الدنيا - من المؤمنين  
حق الإيمان الذين يريدون الآخرة وما عند الله من نعيم مقيم .

قال ابن عباس : إن المسلمين أكثروا المسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى شقوا عليه ، وأراد الله أن يخفف عن نبيه فأنزل هذه الآيات فكف كثير من الناس عن المناجاة .

## الإيضاح

( يأتياها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة ) أي أيها المؤمنون إذا أراد أحد منكم أن يناجي الرسول ويسأله فيما بينه وبينه - فيقدم صدقة قبل هذا ، لما في ذلك من تعظيم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ونفع الفقراء والتمييز بين المؤمن حقا والمنافق ، ومحبة الآخرة ومحبة الدنيا ، ومن دفع التكاثر عليه صلى الله عليه وسلم من غير حاجة ملحة إلى ذلك .

ثم ذكر السلة في هذا فقال :

( ذلك خير لكم وأطهر ) أي إن في هذا التقديم خيرا لكم لما فيه من الثواب العظيم عند ربكم ، ومن تركيبة النفوس وتطهيرها من الجشع في جمع المال وحب ادخاره ، وتعويدا بذله في مصالح العامة كإغاثة منهوف ، ودفع خصاصة فقير ، وإغاثة ذي حاجة ، والمنفقة في كل ما يرقى شأن الأمة ويرفع من قدرها ، ويعلى مكانتها ، ويؤيد الدين وينشر دعوته .

ثم أقام العذر بالتمتع ، فقال :

( فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم ) أي فإن لم تجدوا الصدقة أيها الفقراء وعجزتم عن ذلك فإني قد خص لكم في المناجاة بلا تقديم لها ، لأنه ما أمر بها إلا من قدر عليها .

قد شئنا هذا لئلا يمتنع من المنافق . ولما تم هذا الغرض انتهى ذلك الحكم وخصص في المناجاة بدون تقديم صدقة ، فقال :

(أشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات) أى أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم الصدقات ، ووسوس لكم الشيطان أن فى هذا الإنفاق ضياعا للمال ؟  
(فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم) أى فحين لم تفعلوا ما أمرتم به ، وشق ذلك عليكم ، خفف عليكم ربكم فرخص فى المناجاة من غير تقديم صدقة ، فتداركوا ذلك بالمثابرة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة كما قال :

(فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) أى فادوا الصلاة وقوتوها بأدائها على أكمل الوجوه ، لما فيها من الإخبات إلى الله والإنابة إليه والإخلاص له فى القول والعمل ، ونهيبها عن الفحشاء والمنكر ، ولما فى الزكاة من تطهير النفوس وإزالة الشح بالمال المستحوذ على القلوب الدافع لها إلى ارتكاب الشرور والآثام .  
وأطيعوا الله فيما يأمركم به من الفرائض والواجبات ، وينهاكم عنه من الموبقات .  
ثم وعد وأوعد فقال :

(والله خبير بما تعملون) فهو محيط بنواياكم وأعمالكم ، ومجازيكم بما قدمتم لأنفسكم من خير أو شر ، كما قال « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » وقال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ، وَأَنْ سَعْيُهُ سَوْفَ يَرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى » .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَاهُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ، وَيَخْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (١٦) لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ

اللَّهُ جَمِيعًا فَيَخْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَخْلِفُونَ لَكُمْ وَيَخْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ،  
 أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْذَرُوا الشَّيْطَانَ فَإِنَّ سَأْلَهُمْ  
 ذِكْرَ اللَّهِ ، أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ  
 هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) .

### شرح المفردات

ألم تر : أى أخبرنى وهو أسلوب من الكلام يراد به التعجب وإظهار الغرابة  
 للمخاطب ، والمراد من الذين تولوا: المنافقون، والتولى : من الموالاة وهى المودة والمحبة ،  
 والقوم : هم اليهود ، وغضب الله : سخطه والطرده من رحمته ، ما هم منكم ولا منهم :  
 أى لأنهم مذبذبون ، على الكذب : أى على أنهم معكم على الإيمان ، جنة : أى  
 وقاية وسترا عن المؤاخذه ، على شئ : أى من جلب منفعة أو دفع مضرة ، استحوذ  
 على الشئ : حواه وأحاط به : قال المبرد ويقال حازت الإبل وحزتها إذا استوليت  
 عليها وجمعتها ، قالت عائشة : كان عمر أحوذيا نسيج وحده : أى سائسا ضابطا  
 للأمور لا نظير له ، فأنساهم ذكر الله : أى لم يمكنهم من ذكره بما زين لهم من  
 الشهوات ، وحزب الشيطان : جنوده وأتباعه .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتنافسون فى القرب  
 من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقى الدين عنه والاهتداء بهديه حتى كان  
 يضيق بهم المجلس ، فأمروا أن يتوسعوا ولا يتضاموا - ذكر هنا حال قوم من المنافقين  
 يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين ، فهم عيون لهم عليهم ، وإذا لاقوا  
 المؤمنين قالوا لهم : إنا معكم نؤيدكم على أعدائكم بكل ما أوتينا من قوة وهم كاذبون

في كل ما يقولون وقد جعلوا الإيمان وقاية لسترا ما يبطنون ، فأمنوا من المؤاخذه وجاسوا خلال ضعفاء المؤمنين يصدونهم عن الدين ويذكرون لهم ما يبغضهم فيه ؛ ثم أبان أن الله قد أعد لمثل هؤلاء عذابا شديدا يوم القيامة ، وما هم فيه من ما وولد في الدنيا لن يغنى عنهم شيئا حينئذ ؛ ثم ذكر أن الذي جرأهم على ما فعلوا هو الشيطان ، فقد استولى على عقولهم ، وزين لهم قبيح أعمالهم ، فأناهم عذاب اليوم الآخر ؛ ثم ذكر أن أولئك هم جند الشيطان ، وجنود الشيطان لن تفلح في شيء . وسيرد الله عليهم كيدهم في نحورهم ، ويحبط سعيهم ، ويظهر نور دينه ولو كره الكافرون .

### الإيضاح

( ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ) أى أخبرني عن حال هؤلاء المنافقين الذين اتخذوا اليهود أولياء يناصحونهم وينقلون إليهم أسرار المؤمنين : إن حالهم لتستدعي العجب ، يقابلون كل قوم بوجه ، فهم مع اليهود نصحاء أمانة يبلغونهم ما يعرفونه من دخائل المؤمنين اكتسابا لصداقتهم وودهم ، ومع المؤمنين مؤمنون مخلصون قد بلغ الإيمان قرارة نفوسهم ، ومكث عليهم مشاعرهم وحواسهم ؛ والحقيقة أنهم يخدعون الفثنين كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله :

( ما هم منك ولا منهم ) أى فلا هم بالمؤمنين حقا بل هم مؤمنون من طرف اللسان مداراة للمؤمنين وخوفا من بطشهم ، ولا هم مع اليهود ، لأنهم لا يعمقون أنهم على الدين الحق ، ولكنهم يريدون أن ينتفعوا بما عندهم من عراض الدنيا ، وأن يحتفظوا بمودتهم إذا احتاجوا إليها ، فهم كما قال الله فيهم : « مُدْبِرِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ » وفي الخبر « مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين غنمين » أى المترددة بين قطيعين « لاتدرى أيهما تتبع »

ثم ذكر أنهم يؤكدون إيمانهم وإخلاصهم بالإيمان الكاذبة فقال :

( ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ) أى وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا إنا آمننا وإذا جاء الرسول حلفوا وقالوا له : نشهد إنك لرسول الله ، والله يشهد إنهم لكاذبون فيما يقولون ، لأنهم لا يعتقدون صدقه .

ثم ذكر ما لهم وبين ما يلقون من النكال والويل فقال :

( أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون ) أى أرصد الله لهم نكالا وعذابا أليما جزاء صنيعهم بغش المسلمين وإطلاع أعدائهم على أسرارهم ونصحهم لهم . ثم ذكر ما جعلوه تسكأة لهم على تصديقهم فقال :

( اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ) أى أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر واستروا بالإيمان الكاذبة ، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم صادقون ؛ وبهذه الوسيلة صدوا كثيرا من الناس عن سبيل الله بتشبيط من لقوا عن الدخول في الإسلام بتحقيق شأنه في نظرهم .

ثم بين ما كافأهم به على عملهم فقال :

( فلهم عذاب مهين ) أى فلهم عذاب يلحقهم به الذل والهوان في النار جزاء ما امتنوا اسمه الكريم بالخلف به كذبا .

ثم أرشد إلى أن ما ظنوه منجيا لهم من عذاب الله من المال والأولاد - لبس بنافع لهم حينئذ فقال :

( لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) أى لن تغنى عن هؤلاء المنافقين الأموال فيفتقدوا بها من عذاب الله ، ولا الأولاد فينصروهم وينقذوهم من العذاب إذا هو عاقبهم ، فأولئك هم أهل النار وهم خالدون فيها أبدا ، وقد تقدم مثل هذا في غير موضع من الكتاب الكريم . ( يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ) أى واذكر لهم أيها الرسول حالهم يوم يبعثهم الله جميعا من قبورهم أحياء كهيئتهم قبل مماتهم ، فيحلفون له

قائلين : « وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا إنهم مؤمنون مثلكم .

( ويحسبون أنهم على شيء ) أى ويعتقدون أن ذلك نافع لهم ، فيجلب لهم الخير ، ويدفع عنهم الضرر ، كما كان ذلك شأنهم في الدنيا ، إذ كانوا يدعون بتلك الأيمان الفاجرة عن أرواحهم وأموالهم ويحصلون على فوائد دنيوية أخرى .  
ثم رد عليهم منكرها لهم فقال :

( ألا إنهم هم الكاذبون ) فيما يحلفون عليه زعما منهم أن أيمانهم الفاجرة تروج الكذب لديه تعالى ، كما تروجه لدى المؤمنين في الدنيا .

ونحو الآية قوله : « ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتَنْتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ . أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ » .

ثم بين السبب الذى أوقعهم فى الردى وأوصلهم إلى قرارة جهنم فقال :  
( استعوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ) أى غلب على عقولهم بوسوسته وتزيينه حتى اتبعوه ، فلم يمكنهم من ذكر الله واتباع أوامره وترك نواهيه ، بما زين لهم من الشهوات فأوقعهم فى دركات جهنم ، وبئس المصير .

( أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ) أى أولئك هم جنود الشيطان وأعوانه ، وإن جنده لهم الهالكون المغبونون فى صفتهم ، إذ هم قد فوتوا على أنفسهم النعيم المقيم ، واستبدلوا به العذاب الأليم ، وليس من دأب العاقل أن يقبل مثل هذا نفسه .

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ

أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ  
وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ  
فِيهَا ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ، أَلَا إِنَّ حِزْبَ  
اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) .

### شرح المفردات

يحادون : أى يعادون ويشاقون ، فى الأذلين : أى فى جملة أذل خلق الله ،  
لأن ذلة أحد المتخاصمين على مقدار عزة الآخر ، كتب الله : أى قضى وحكم ،  
لأغلبين : أى بالحجة والسيف ، وأيدهم : أى قوامهم ، بروح من عنده : أى بنور  
يقذفه فى قلب من يشاء من عباده ، لتحصل له الطمأنينة والسكينة .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال أولئك المنافقين الذين يحلفون كذبا إنهم مؤمنون ، ويماثلون  
المؤمنين طورا واليهود طورا آخر اكتسابا لرضا الفريقين ، ثم بين أن الذى حملهم  
على ذلك هو الشيطان ، إذ غلبهم على أمرهم حتى أنساهم ذكر الله وما يجب له من  
تعظيم ووجوب اعتقاد باليوم الآخر ، ثم حكم عليهم بأن صفقتهم خاسرة ، لأنهم  
باعوا الباقى بالفانى والزائل الذى لا دوام له بما هو دائم أبدا سرمدا - بين هنا سبب  
خسرانهم وهو أنهم شاقوا الله ورسوله وعصوا أمرهما ، فسكتب عليهم الذلة فى الدنيا  
والآخرة ، إذ قد قضى بأن العزة والغلب له ولرسله ، والذلة لأعدائه ؛ ثم ذكر أن  
الإيمان الحق لا يجتمع مع موالاته أعدائه مهما قرب بهم النسب بأن كانوا آباء أو أبناء  
أو إخوانا أو من ذى العشيرة ، لأن المحادين كتبت عليهم الذلة ، وأولئك كتبت لهم  
العزة ، وقوام ربهم بالطمأنينة والثبات على الإيمان ، وهم جند الله وناصرو دينه ،

وحزب الله مفلح لاحالة وقد كتبت له السعادة في الدارين كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ »

### الإيضاح

( إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذلين ) أى إن الذين يخالفون أوامر الله ونواهيه ، ويمتنعون عن أداء ما فرض عليهم من فرائضه ، هم في جملة أهل الذلة ، لأن الغلبة لله ورسوله ، ودلهم في الدنيا يكون بالقتل والأسر والإخراج من الديار كما حصل للمشركين واليهود ، وفي الآخرة بالخزى والنكال والعذاب الأليم كما قال سبحانه : « رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخِلِ الذَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ » .

وفي هذا بشارة للمؤمنين بأنه سيظهرهم على عدوهم ويكتب لهم الفوز ويكونون هم الأعزاء وسواهم الأذلاء .

ثم أكد ماسلف بقوله :

( كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ) أى قضى الله وحكم في أم الكتاب بأن الغلبة بالحجة والسيف وما يجري مجراها تكون لله ورسوله ، فقد أهلك كثيرا من أعدائهم بأنواع من العذاب كقوم نوح وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم ( والحرب بين نبينا وبين المشركين ، وإن كانت سجالا كانت العاقبة فيها له عليه الصلاة والسلام ) ثم تكون لأتباعه من بعده ما داموا على سننه ، محافظين على الحدود التي أمروا بها ، وبجاهدوا عدوهم جهادا خالصا لله على نحو جهاد الرسل ، لا لطلب ملك وسلطان ، ولا لطلب دنيا ومال . وعن مقاتل قال : لما فتح الله تعالى مكة المؤمنين والطائف وخيبر وما حولها ، قالوا نرجو أن يظهرنا الله على فارس والروم ، فقل عبد الله بن أبي راس المنافقين : أتظنون أن فارس والروم كبعض القرى التي ظلمتم عليها ؟ والله إنهم لأكثر عددا وأشد بطشا من أن تظنوا فيهم ذلك فنزلت : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » .

( إن الله قوى عزيز ) أى إن الله الذى له الأمر كله — قوى على نصر رسله لا يُغْذَب على مراده ، ففى أراد شيئا كان ولم يجد معارضا ولا ممانعا كما قال : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

( لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ) أى لا تجد قوما يجمعون بين الإيمان بالله واليوم الآخر ، وموادة أعداء الله ورسوله ، لأن إيمان المؤمنين يفسد بموادة الكافرين ، إذ من كان مؤمنا حقا لا يوالى كافرا ، فمن أحب أحدا امتنع أن يوالى عدوه ، والمراد من موالاته مناصحته وإرادة الخير له فى الدين والدنيا ، أما المخالطة والمعاشرة فبست بمحظورة : وأقد أصاب المسلمين اليوم من ذلك بلاء شديد ، فإننا نرى الأمم الإسلامية أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبنائها فى شمال أفريقيا وفى مصر وغيرها يوالون الإفرنجية وينصرونهم على أنباء جنسهم ، ولو كان فى هذا ذل لهم ولدينهم وأمتهم ، ولن يزول هذا إلا بالاستشعار بالعمة والكرامة القومية والدفاع عن حوزة الدين ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

ثم بالغ فى الزجر وأبان أنه لا ينبغى لمؤمن أن يفعل ذلك ولو مع الأقارب كالآباء الذين يجب طاعتهم ومصاحبتهم فى الدنيا بالمعروف ، أو الأبناء الذين هم فلذات الأكباد ، أو الإخوان الذين هم الناصرون لهم ، أو العشيرة الذين يعتمد عليهم بعد الإخوان .

والخلاصة — إنه لا يجمع إيمان مع موادة أعداء الله ، لأن من أحب أحدا امتنع من محبة عدوه ، فإذا حصل فى القلب مودة أعداء الله لم يحصل فيه الإيمان الصحيح وكان صاحبه منافقا .

أخرج الطبراني والحاكم والترمذي مرفوعاً « يقول الله تبارك وتعالى : وعزى لا ينال رحمى من لم يوال أوليائى ، ويعاد أعدائى » وأخرج الديلمى من طريق الحسن عن معاذ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم لا تجعل لفاجر ولا لغاش على يداً ولا نعمة فيودّه قلبى ، فإنى وجدت فيما أوحيت إلى : لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

قيل إن الآيات نزلت في أبى بكر رضى الله عنه ، أخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : حَدَّثْتُ أَنَّ أَبَا قُحَّافَةَ سَبَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَصَكَهُ أَبُو بَكْرٍ صَكَةً سَقَطَ بِهَا عَلَى وَجْهِهِ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : أَفَعَلْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ قَالَ نَعَمْ ، قَالَ لَا تَعُدْ ، قَالَ وَاللَّهِ لَوْ كَانَ السَّيْفُ قَرِيبًا مِنِّي لَقَتَلْتُهُ .

وقيل نزلت في أبى عبيدة بن عبد الله الجراح ، أخرج ابن أبى حاتم والطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقى في سننه عن ابن عباس قال : جعل والد أبى عبيدة يتصدى له يوم بدر ، وجعل أبو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكَثَرَ قَصْدَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ فَقَتَلَهُ فَنَزَلَتْ : ( لَا تَجِدُ قَوْمًا ) الْآيَةَ .

( أولئك كتب في قلوبهم الإيمان ) أى أولئك الذين سلفت أوصافهم أثبت الله في قلوبهم الإيمان ، والإيمان نعمة عظيمة لا تحصل لمن يواد من حاد الله ورسوله . وفى هذا مبالغة فى الزجر عن موادة أعداء الله .

ثم ذكر سببا آخر يمنع من موادتهم فقال :

( وأيدهم بروح منه ) أى إنه قواهم بطمأنينة القلب والثبات على الحق ، فلا يبالون بموادة أعداء الله ولا يأبهون لهم .

ثم ذكر ما أعده لهم من النعيم المقيم فقال :

( ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدون فيها ) أى ما كثرت فيها أبدا .

ثم ذكر السبب فيما أفاض الله عليهم من نعمة فقال :

( رضى الله عنهم ورضوا عنه ) أى أغدق عليهم من رحمته العاجلة والآجلة ، فأدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ورضوا عنه لابتهاجهم بما أوتوه عاجلاً وآجلاً ، فإنهم لما سخطوا على الأقارب والعشائر فى الله تعالى — عوضهم الله بالرضا عنه ، وأرضاهم عنه بما أعطاهم من النعيم المقيم ، والفوز العظيم ، والفضل العميم .  
ثم أشاد بتشريفهم فجعلهم جنده تعالى فقال :

( أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ) أى أولئك أنصار الله وجنده وأهل كرامته ، وهم أهل الفلاح والسعادة والنصرة فى الدنيا والآخرة .

### خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) ألفة الأزواج فى المنازل .
- (٢) ألفة الأصحاب فى المجالس .
- (٣) الأدب مع الحكام بترك مضايقتهم ، لكثرة أعمالهم .
- (٤) رفع الحكام بالحكومين إذا رأوا أمراً يُثقلهم .
- (٥) مجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فإن ذلك يضعفها ويفرق جمعها ويذلها .

## سورة الحشر

هي مدنية ، وعدة آياتها أربع وعشرون نزلت بعد سورة البينة .  
ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

- (١) إن في آخر السالفة قال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغِدَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وفي أول هذه قال : « فَأَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ » .  
(٢) إن في السابقة ذكر من حادَّ الله ورسوله ، وفي أول هذه ذكر من شاقَّ الله ورسوله .

(٣) إن في السالفة ذكر حال المنافقين واليهود وتولى بعضهم بعضا ، وفي هذه ذكر ما حل باليهود ، وعدم غناء تولى المنافقين إياهم . « روى أن بنى النضير كانوا قد صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولالة ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هو النبي الذي نعت في التوراة ، لا ترد له راية ، فلما هُزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف في أربعين راكبا إلى مكة فخانوا عليه فريشا عند الكعبة ، فأخبر جبريل النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فأمر بقتل كعب فقتله محمد بن سلمة غيلة وهو عروس ، وكان عليه الصلاة والسلام قد اطلع منهم على خيانه حين أتاهم يستعينهم في دية المسلمين من بنى عامر عند منصرفه من بدر معونة ، إذ هموا بطرح حجر عليه فعصاه الله .

وبعد أن قتل كعب بأشهر تهيم المسلمون لقتالهم وساروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم حتى إذا نزل في بنى النضير وجدهم ينسحبون على كعب ، وقالوا ذرنا نبيك شعونا ، ثم أثمر امرئ . فقال : خرجوا من المدينة ، فقالوا الموت أقرب إلينا من ذلك ، فتنادوا بالحرب ، ودس المنافقون عبد الله بن أبي وأضرابه إليهم ألا يخرجوا من الحصن ، فإن قاتلوك فنحن معكم ،

وإن أُخْرِجْتُمْ لَنُخْرِجَنَّ مَعَكُمْ ، غُصْنُوا الْأَزْقَةَ وَحَاصِرُوهم إحدى وعشرين ليلة ، وَقَذَفَ اللَّهُ الرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَيَسُوا مِنْ نَصْرِ الْمُنَافِقِينَ فَطَلَبُوا الصَّلَاحَ ، فَأَبَى إِلَّا الْجَلَاءَ عَلَى أَنْ يَحْمِلَ كُلُّ ثَلَاثَةِ آيَاتٍ عَلَى بَعِيرٍ مَا شَاءُوا مِنْ مَتَاعِهِمْ ، فَجَلُّوا إِلَى الشَّامِ ، إِلَى أَرِيحَاءَ وَأَذْرَعَاتٍ ، إِلَّا أَهْلَ يَبْتِينَ مِنْهُمْ هُمَا آلُ أَبِي الْحَقِيقِ وَآلُ حُيِّ بْنِ أَخْطَبٍ ، فَإِنَّهُمْ لَحَقُّوا بِخَيْبَرَ ، وَلَحِقَتْ طَائِفَةٌ بِالْخَيْبَةِ ، وَقَبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَمْوَالَهُمْ وَسِلَاحَهُمْ ، فَوَجَدَ خَمْسِينَ دِرْعًا وَخَمْسِينَ بَيْضَةً .

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)  
هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ  
الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ ،  
فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يُخْرِبُونَ  
بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا  
أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ  
النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ  
الْعِقَابِ (٤) مَا فَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَاعَةً عَلَى أُسُولِهَا فَبِإِذْنِ  
اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) .

### شرح المفردات

الذين كفروا : هم بنو النضير ( بزنة أمير ) قبيضة عظيمة ، من اليهود كبنى قريظة ،  
والحشر : إخراج جمع من مكان إلى آخر ، ولأول الحشر : أى فى أول حشرهم ،

أى جمعهم وإخراجهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى بلاد الشام ، وآخر حشر: إجلاء عمر إياهم من خير إلى الشام ، والحصون : واحداها حصن وهو القصر الشاهق والقلمة المشيدة ، مانعهم حصونهم من الله : أى مانعهم من بأسه وعقابه ، فاتاهم الله : أى جاءهم عذابه ، من حيث لم يحتسبوا: أى من حيث لم يخطر لهم ببال ، وقَذَفُ الشئ: رميه بقوة ، والمراد هنا إثباته وركزه في قلوبهم ، والرعب : الخوف الذى يملأ الصدر يخربون : أى يهدمون ، فاعتبروا : أى فاتعظوا ، والاعتبار: النظر فى حقائق الأشياء وجهات دلالتها ، ليعرف بالنظر فيها شئ آخر من جنسها ، وأجلت القوم عن منازلهم : أى أخرجتهم منها ، وجلوا : خرجوا ، وقد فرقوا بين الإجلاء والإخراج من وجهين : أن الأول لا يكون إلا لجماعة ، والثانى : يكون لواحد ولجماعة ، وأن الأول ما كان مع الأهل والولد والثانى يكون مع بقائهما ، واللينه : النخلة ما لم تكن عجوة .

### المعنى الجملى

علمت مما سلف أن اليهود نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وظاهروا المشركين اتكالا على مساعدة المنافقين لهم ومناعة حصونهم، قتها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسارقتهم ، فلما علموا بقدومه حصنوا الأزقة فحاصروهم عليه الصلاة والسلام عدة أيام وألقى الله الرعب فى قلوبهم ، فطلبوا الصلح فأبى إلا الجلاء وأخرجهم من حصونهم بعد تخريبها بأيديهم وأيدي المؤمنين ، ولولا جلاؤهم لعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد ، وما كان ذلك إلا بإذن الله وتقديره للأمور وفق الحكمة والمصلحة .

### الإيضاح

( سبح لله مافى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ) أى إن جميع مافى السموات والأرض من الأشياء يقده سبجانه ويمجده ، إما باللسان أو بالقلب أو بدلالة الحال لانتقاده لتصرفه له كيف شاء لامعقب لحكمه .

ونحو الآية قوله تعالى : « تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

ثم بين بعض آثار عزته ، وأحكام حكمته فقال :

( هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر )  
أى هو الذى أجلى بنى النضير من المدينة بقوة عزته ، وعظيم سلطانه ، وكان هذا أول مرة حشروا فيها وأخرجوا من جزيرة العرب لم يصبهم الذل قبلها ، لأنهم كانوا أهل عزة ومنعة ، وآخر حشروهم ، جلاء عمر رضى الله عنه لهم من خير إلى الشام .  
ثم بين فضل الله على المؤمنين ، ونعمته عليهم فى إخراج عدوهم من ديارهم ولم يكن ذلك منتظراً فقال :

( ما ظننتم أن يخرجوا ) أى ما خطر لكم ذلك أيها المؤمنون بهال ، لشدة بأسهم ومنعتهم ، وقوة حصونهم ، وكثرة عددهم وعددهم .

وفى ذكر هذا تعظيم للنعمة ، فإن النعمة إذا جاءت من حيث لا تترقب كانت مكاتبا فى النفوس أعظم ، وكانت بها أشد سروراً وإبتهاجاً .

والمسلمون ماظنوا أن يبلغ الأمر بهم ، إلى إخراج اليهود من ديارهم ، ويتخلصوا من مكايدهم وأشرارهم التى ما فتشوا ينصبونها لمؤمنين ، وبذا قضى الله عليهم قضاءه الذى لامرّد له ، وصدق الله ( لَا غِلْبَةَ أَنَا وَرُسُلِي ) .

ثم ذكر ما جرّاهم على مشاكسة النبي صلى الله عليه وسلم وتأليب المشركين عليه فقال :

( وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ) أى وظن بنو النضير أن حصونهم المنفعة القوية تمنعهم من أن ينالهم عدو بسوء ، فلا يستطيع جيش مهما أوتى من بأس أن يصل إليهم بأذى ، فاطمأنوا إلى تلك القوة ، وأوقدوا نار الفتنة بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين ، طمعاً فى القضاء عليه ، بعد أن أصبحت له الزعامة

الدينية والسياسية في المدينة ، وسيكون في ذلك القضاء عليهم لو صبروا ، وقد غبروا  
دهراً وهم أصحاب السلطان فيها ، لأنهم من وجه أهل كتاب ، ومن وجه آخر هم  
أرباب النفوذ المالى فيه ، وأصحاب الثروة والجاه العريض .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

( فَأَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ) أى فجاءهم بأس الله وقدرته الذى لا تُدفع  
من حيث لم يخطر ذلك لهم ببال ، وصدق فيهم ما قيل : قد يُؤْتَى الْحَذِرُ مِنْ مَأْمَنِهِ .  
فأجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة ، فذهبت طائفة منهم إلى أُدْرَعَاتٍ مِنْ  
أَعَالَى الشَّامِ ، وطائفة إلى خَيْبَرَ عَلَى أَنْ يَأْخُذُوا مَعَهُمْ مَا حَمَلَتْ إِلَيْهِمْ .

ثم بين أسباب هذا الاستسلام السريع ، والنزول على حكم الرسول على مناعة  
الحصون وكثرة العدد والعُدَدُ فَقَالَ :

( وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ) أى بثّ في قلوبهم الهلع والخوف حين جاء  
رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إليهم ، فلم يستطيعوا إلى المقاومة سبيلاً .  
ومما كان له بالغ الأثر في هذا الخوف قتل رئيسهم كعب بن الأشرف غيلةً ،  
وما رأوه من كذب وعد عبد الله بن أُبَيٍّ رَأْسَ الْمُنَافِقِينَ فِي نَصْرَتِهِمْ ، وإرسال المدد  
إليهم ، وتغريه بهم ، وتوسيع مسافة الخلف بينهم وبين الرسول ، فهم قد أوقدوا  
نارا كانوا هم حطب هُيْمِهَا ، وفتحوا ثُغْرَةَ بَرءٍ وَسُوءٍ قَدْ سَدَّوْهَا ، ووقعوا في حفرة  
هم الذين كانوا قد حفروها ، فابتلعهم لا إلى رجعة .

ثم بين مدى ما لحقهم من الهلع والجزع ، وكيف حاروا في الدفاع عن  
أنفسهم فَقَالَ :

( يُخْرِبُونَ بِيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ ) أى يخربون بيوتهم بأيديهم ليسدوا  
بما نقضوا منها مِنَ الْخُشْبِ وَالْحِجَارَةِ أَفْوَاهَ الْأَرْقَةِ حَتَّى لَا يَدْخُلَهَا الْعَدُو ، وحتى لا تبقى  
صالحة لسكنى المؤمنين بعد جلائهم ، ولينقلوا بعض أدواتها التى تصاح للاستعمال  
في جهات أخرى كَالْخُشْبِ وَالْعَمْدِ وَالْأَبْوَابِ ، ويخربها المؤمنون من خارج ليدخلوها

عليهم ، ويزيلوا تحصنهم بها ، وليتسع مجال القتال ، ويكون في ذلك عظيم التنكيل والغيظ لهم .

ثم ذكر ما يجب أن يجعله العاقل نُصْب عينيه من عظة واعتبار فقال :  
( فاعتبروا يا أولى الأبصار ) أى فاتعظوا يا ذوى البصائر السليمة ، والعقول  
الراجحة ، بما جرى لهؤلاء من أمور عظام ، و بلاء ما كان يخطر لهم ببال ، بأسباب  
تحرار في فهمها العقول ، ولا يصل إلى كنهه حقيقة ذوو الآراء الخسيفة ، وابتعدوا عن  
الكفر والمعاصى التى أوقعتهم فى هذه المهالك ، فالسعيد من وعظ بغيره ، وإياكم  
والعذر ، والاعتماد على غير الله ، فما اعتمد أحد على غيره إلا ذل .

ثم بين أن الجلاء الذى كتب عليهم كان أخف من القتل والأسر فقال :  
( ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء بعدتهم فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب النار )  
أى ولولا أن الله قدر جلاءهم من المدينة ، وخروجهم من أوطانهم على هذا الوجه  
المهين ، بعدتهم فى الدنيا بما هو أفظع منه من قتل وأسركم فعل مع المشركين  
فى رقعة بدر . وكما فعل مع بنى قريظة فى سنة خمس للهجرة ، كفاء غدرهم  
وخيانتهم ، وتأليب المشركين على المؤمنين . والسعى فى إطفاء نور الإسلام حتى  
لا تقوم لهم قائمة — إلى ما أعد لهم من عذاب مقيم . ونكال وجحيم ، حين تقوم  
الساعة ، وتجازى كل نفس بما كسبت .

ثم بين السبب فيما حل بهم وذكر علته فقال :  
( ذلك بأنهم شقوا الله رسوله ) أى إنه إنما فعل ذلك بهم . وسلط عليهم  
رسوله وعباده المؤمنين ، لأنهم خالفوا الله ورسوله ، وكذبوا بما أنزله على رسوله  
المتقدمين من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم .  
ثم ذكر ما ل من بعادى الله ورسوله فقال :

( ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب ) أى ومن يعاد الله فإن الله يعاقبه أشد  
العقاب ، وينزل به الخزي والهوان فى الدنيا ، والنكال السرمدى فى الآخرة .

ثم ذكر أن كل شيء بقضاء الله وقدره فقال :

(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله) أى أى شئ قطعتموه من النخل أو أبقيتموه كما كان ولم تعرضوا له بشئ فذلك بأمر الله الذى بلغه إليكم رسوله لتطهر البلاد من شرورهم .

روى أنه عليه الصلاة والسلام حين أمر بقطع نخلم وحرقة قالوا : يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد فى الأرض ، فما بال قطع النخل وتحريقها ، وكان فى أنفس المؤمنين من ذلك شئ ؟ فقالوا للنساء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هل لنا فى قطعنا من أجر ؟ وهل علينا فما تركنا من وزر ؟ فأنزل الله الآية .

(وليعزى الفاسقين) أى فعل ذلك ليعز المؤمنين ، وليعزى الفاسقين ، ويذهبهم  
ويزيد غيظهم ، ويضاعف حسرتهم ، بنفاذ حكم أعدائهم فى أعز أموالهم .

والخلاصة — إنكم بأمر الله قطعتم ، ولم يكن ذلك فساداً بل نعمة من الله ، ليخزيهم ويذلم بسبب فسقهم وخروجهم من طاعة الله ومخالفة أمره ونهيه .

وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ، وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَنْ نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) .

## شرح المفردات

قال المبرد: يقال ثاء بقاء إذا رجع ، وأفاءه الله إليه: أى رده وصيره إليه ، والنفى شرعا : ما أخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كأموال بنى النضير ، ويقال وجف الفرس والبعير يحف وجفاً ووجيفاً : إذا أسرع ، وأوجفه صاحبه إذا حمله على السير السريع ؛ والركاب : ما يركب من الإبل ، واحتتها راحلة ، ولا واحد لها من نفظها ، والعرب لاتطوق نفظ الركاب إلا على راكب البعير ، ويسمون راكب الفرس فارساً ، يسلط رسنه : أى على أعدائه من غير قتال ولا مصاولة بل بالبقاء الرعب فى القلوب ، فيكون النفى للرسول يصرفه فى مصاروه التى ستملها بعد ، من أهل القرى: أى من أهل البلدان التى تفتح هكذا بلا قتال ، ولذى القرى : أى بنى هاشم وبنى المطلب ، قال المبرد : الدولة (بالضم) الشئ الذى يتداوله القوم بينهم يكون كذا مرة وكذا أخرى ، والدولة (بالفتح) انتقال حال سارة من قوم إلى قوم ، أى فالأولى اسم لما يتداول من المال ، والثانية اسم لما ينتقل من الحال ، آتاكم : أى أعطاكم ، وما نهاكم عنه . أى مامنعكم عن فعله .

## المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما حلّ ببنى النضير من العذاب العاجل كتخريب بيوتهم بأيديهم وتخريق نخبهم وتقطيعها ، ثم إجلالهم من بعد ذلك عن الديار إلى الشام دون أن يحملوا إلا القليل من المتاع - ذكر هنا حكم ما أخذ من أموالهم ، فجعله فينا لله ورسوله ينفق منه على أهله نفقة سنة ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكراع عُدّة فى سبيل الله . ولا يقسم بين المقاتلة كالغنيمة ، لأنهم لم يقاتلوا لأجله .

روى أن الصحابة رضى الله عنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقسم النفى بينهم كما قسم الغنيمة فى بدر وغيرها بينهم ، فبين سبحانه الفرق بين

الأمرين ، بأن الغنيمة تكون فيما أنعمتم أنفسكم في تحصيله وأوجفتم عليه الخيل والركاب ، والفيء لم يتحملوا في تحصيله تعباً ، وحينئذ يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يضعه حيث يشاء .

## الإيضاح

(وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب) أى ماصيره الله إلى رسوله من أموال بنى النضير فهو لله ورسوله ، ولا يجعل غنيمة للجيش يقسم تقسيم الغنائم ، لأنه لم تقا تل فيه الأعداء بالمبارزة ولمصاولة ، بل نزلوا على حكم الرسول فرقاً ورُعْباً ، ولهذا يصرف في وجوه البر والمنافع العامة التى ذكرها الله في هذه الآيات .

أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرهم عن عمر بن الخطاب قال : « كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله تعالى على رسوله خاصة . فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة ، ثم يجعل ما بقى فى السلاح والكرراع عُدّة فى سبيل الله تعالى » .

(ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) أى ولكن جرت سنة الله أن يسلط رسله على من يشاء من أعدائه ويقذف الرعب فى قلوبهم ، فيستسلمون لهم بلا قتال ولا مصاولة ، كما سلط محمداً صلى الله عليه وسلم على هؤلاء فنزلوا على حكمه دون اقتحام مضايق الخطوب ، ولا مقاومة شدائد الحروب ، فلا حق للمقاتلة فى الفيء بل يكون أمره مفوضاً إلى الرسول يصرفه كيف شاء ، ولا يقسمه تقسيم الغنائم .

(والله على كل شئ قدير) فيفعل ما يشاء كما يشاء ، تارة على ما يعهد من السنين وأخرى على غير ما يعهد منها كما جرى لبنى النضير من استسلامهم بلا قتال على

مناعة حصونهم وكثرة عددهم وعددهم من سلاح وكراع ، وما كان المسلمون يظنون أن هذا سيكون .

وبعد أن أتم الكلام فى إجلاء بنى النضير وفيهم أعقبه بالكلام فى حكم ما أفاء الله على رسوله من قرى الكفار عامة فقال :

( ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ) أى ما رده الله إلى رسوله من كفار أهل القرى كقرية النضير وفدك وخيبر ، فيصرف فى وجوه البر والخير ولا يقسم تقسيم الغنائم ، بل يعطى للرسول ولذى قريبه من مؤمنى بنى هاشم وبنى المطلب ، ولليتامى الفقراء ، والمساكين ذوى الحاجة والبؤس ، ولابن السبيل الذى انقطع عنه ماله ، ولا يمكن أن يصل إليه لبعده الشقة وانقطاع طرق المواصلات ، وقد كان ذلك حين كانت طرق الوصول شاقة ، لكنها الآن سهلة وهى على أساليب شتى ، فيمكن المرء أن يطلب ما شاء بحوالة على أى مصرف فى أى بلد على سطح الكرة الأرضية ، ومن ثم فهذا النوع لا يوجد الآن .

ثم علل هذا التقسيم بقوله :

( كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ) أى وإنما حكمنا بذلك وجعلناه مقسما بين هؤلاء المذكورين ، لئلا يأخذ الأغنياء ويتداولوه فيما بينهم ، ويتكاثروا به ، كما كان ذلك دأبهم فى الجاهلية ، ولا يصيب الفقراء من ذلك شئ .

( وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ) أى وما أعطاكم الرسول من الفى وغيره فخذوه فهو لكم حلال ، وما نهاكم عنه فابتعدوا عنه ولا تقربوه ، فإن الرسول لا ينطق عن الهوى كما قال سبحانه : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى فى جماعة عن ابن مسعود قال : « لعن الله

تعالى الواشئات<sup>(١)</sup> والمستوشحات والمتنمصات والمتفججات للحسن المغيرات لخلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن فقات بلغنى أنك لعنت كيت وكيت، فقال : ما لي لا ألعن من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في كتاب الله عز وجل، فقالت : لقد قرأت ما بين لوحى المصحف فما وجدته، قال إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت قوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » قالت بلى، قال : فإنه صلى الله عليه وسلم قد نهى عنه .

وعن أبي رافع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَا أَفِيئَ أَحَدَكُمْ مَتَكُئًا عَلَى أُرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ لَا أَدْرِي ، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبِعْنَاهُ » .

ثم حذرهم من مخالفة أوامر الله ونواهيه فقال :

(واتقوا الله إن الله شديد العقاب) أى واتقوا الله فامثلوا أوامره ، واتركوا نواهيه ، فإنه شديد العقاب لمن عصاه ، وخالف أمره وأباه ، وارتكب ما عنه زجره ونهاه ، ورسوله ترجمان عما يريد الله لخير عباده وسعادتهم فى الدنيا والآخرة .

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ  
فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ  
الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ  
إِلَيْهِمْ ، وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(١) الوشم : غرز الإبرة فى عضو من الجسم ثم حشوه بالكحل ، والمستوشمة : منى تطيب

فعل ذلك ، والتنمص : منى التى تنشف الشعر من الوجه وغيره ، والمتفججة : منى التى تشكف  
تفريغ ما بين النوايا بطرق صناعية .

وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩)  
وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ  
سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ، وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ  
رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) .

### شرح المفردات

التمهيد : النزول في المكان ، ومنه المباءة للمنزل ، والمراد من الدار المدينة ، والمراد  
بالحاجة الحسد والغيظ ، وأوتوا : أى أعطى المهاجرون دون الأنصار ، ويؤثرون :  
أى يقدمون ويفضلون ، والخصاصة : الحاجة من خصاص البيت ؛ وهو ما يبقى بين  
عيديه من الفرج وكذا كل خرق في منخل أو باب أو سحاب أو برقع ، والشح :  
الاؤم ؛ وهو أن تكون النفس كزرة حريصة على المنع ، قال شاعرهم :  
يمارس نفساً بين جنبيه كزرة إذا هم بالمعروف قالت له مهلاً  
قال الراغب : البخل : المنع ، والشح : الحال النفسية التى تقتضى ذلك ، وغلاً  
أى حسداً وبغضاً .

### المعنى الجملى

بعد أن بين مصارف النفي فيها سنف ، وذكر أنه لله وللرسول ولدى القربى  
واليتامى والمساكين - ذكر هنا أنه أراد بهم فقراء المهاجرين الذين لهم هذه الصفات  
السامية ، والمناقب الرفيعة ، ثم مدح الأنصار ساكنى المدينة وبالغ في مدحهم فذكر  
لهم هذه الفضائل :

(١) إهم يحبون المهاجرين .

(٢) إهم ليس فى قلوبهم حقد ولا حسد لهم .

(٣) إنهم يفضلونهم على أنفسهم ويعطونهم ما هم في أشد الحاجة إليه ، وما ذاك إلا لأن الله عصمهم من الشح الردي والبخل المهلك ، الذي يدس النفوس ويمنعها من اكتساب الخير وعمل البر .

ثم ذكر أن التابعين لهم بإحسان ، وهم الذين يجهثون بعد المهاجرين والأنصار إلى يوم القيامة ، يدعون لأنفسهم ومن سبقهم من المؤمنين بالمغفرة ، ويطلبون من الله ألا يجعل في قلوبهم حقدا وحسدا لهم .

### الإيضاح

( للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله ) أى إنه أراد بهؤلاء الأربعة السالفين فقراء المهاجرين الذين اضطرتهم كفار مكة إلى الخروج من ديارهم وترك أموالهم طلبا لمرضاة ربهم ونيلًا لثوابه ونصرة لله ورسوله ، وإعلاء لشأن دينه .

( أولئك هم الصادقون ) أى هؤلاء هم الصادقون في إيمانهم ، إذ قد فعلوا ما يدل على الإخلاص فيه والرغبة الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم ، فهم قد أخرجوا من ديارهم ، وهى العزيزة على النفوس ، المحببة إلى القلوب .

بلادى وإن جارت على عزيزة وأهلى وإن ضنوا على كرام

وتركوا الأموال والمال شقيق الروح ، وكثيرا ما يقتل المرء في سبيل الذود عنه ، وانتزاعه من أيدي غاصبيه ، وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين ، ورفع شأنه ، وذبوع ذكره ، فحق لهم من ربهم النعيم المقيم ، وجزيل الثواب بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال ، وعظيم الخلال .

روى أن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ منهم الحفيرة في الشتاء مائه دثارا غيرها . وعن سعيد قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم « بشر وا صعا ليك المهاجرين بالنور التام يوم القيامة ، يدخلون الجنة قبل الناس بنصف يوم ، وذلك خمسمائة سنة » أخرجه أبو داود .  
ثم مدح سبحانه الأنصار وأثنى عليهم حين طابت نفوسهم عن الفداء إذ جعل للمهاجرين دونهم فقال :

( والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ) أى والذين سكنوا المدينة ، وأثرت قلوبهم حب الإيمان من قبل هجرة أولئك المهاجرين ، لهم صفات كريمة ، وشيم جليلة تدل على كرم النفس ، ونبل الطباع ، فهم :

(١) يحبون المهاجرين ويتمنون لهم من الخير ما يتمنون لأنفسهم ، وقد آخى رسول الله بينهم وبينهم ، وأسكن المهاجرين في دور الأنصار معهم ، ونزل بعض الأنصار عن بعض نسائهم للمهاجرين ، طيبة بذلك نفوسهم ، قريرة به أعينهم .  
روى أحمد عن أنس قال : « قال المهاجرون : يا رسول الله مارأينا مثل قوم قدمنا عليهم حسن مواساة في قنيل ، ولا حسن بذل في كثير ، لقد كفونا الثؤنة ، وأشركونا في الميأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال لا ، ما أثبتتم عليهم ودعوتهم الله لهم » .

وقال عمر : وأوصى الخليفة بعدى بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم حقهم ، ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصى بالأنصار خيراً ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبل ، أن يقبل من محسنهم ، وأن يعفو عن مسيئتهم .

(٢) لا يطمحون إلى شئ مما أعطيه أولئك المهاجرون من الفداء وغيره .  
روى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للأنصار : إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم ، فقالوا أموالنا بيننا قطائع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك ؟ قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ فقال : هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم وتقاسمونهم الثمر ، فقالوا نعم يا رسول الله » .

(٣) يقدمون ذوى الحاجة على أنفسهم ، ويبعدون بسواهم قبلهم ، حتى إن من كان عنده امرأتان ينزل عن إحداها ويزوجها واحداً من المهاجرين .  
أخرج البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن أبى هريرة قال : « أنى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أصابنى الجهد ، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئاً ، فقال عليه الصلاة والسلام : ألا رجل يضيف هذا الرجل الليلة رحمه الله ؟ فقال أبو طلحة أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله ؛ فقال لامراته أكرمى ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت والله ما عندى إلا قوت الصبية ، قال إذا أراد الصبية العشاء فنوِّميهن ، وتعالى فأطفئ السراج ونطوى الليلة لضيف رسول الله ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال عليه الصلاة والسلام : لقد عجب الله الليلة من فلان وفلانة وأنزل فيهما ( وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ) » .

ثم بين سوء عاقبة الشح فقال :

( ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) أى ومن يحفظوا أنفسهم من الخرص على المال والبخل به فأولئك هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجون من كل مكروه .

أخرج الترمذى وأبو يعلى وابن مردويه عن أنس مرفوعاً « لا يجتمع غبار فى سبيل الله ودخان نار جهنم فى جوف عبد أبداً ، ولا يجتمع الإيمان والشح فى قلب عبد أبداً »

وأخرج أحمد والبخارى فى الأدب ومسلم والبيهقى عن جابر عن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقروا الظلم ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح قد أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » .

وروى الأمامى عن ابن مسعود أن رجلاً أتاه فقال : إني أخاف أن أكون قد هلك ، قال وما ذاك ؟ قال : سمعت الله يقول ( وَمَنْ يُّوقْ شِحْنَهُ نَفْسِهِ ) وأنا رجل

شحيح لا أكاد أخرج من يدي شيئاً : فقال ابن مسعود : ليس ذلك الذى ذكر الله تعالى ، إنما انشح أن تأكل كل مال أخيك ظمأ ، ولكن ذلك البخل ، وبئس الشئ البخل — ففرق بين الشح والبخل .

ونيس المراد من تقوى الشح الجود بكل ماملك ؛ فقد روى أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « برئ من الشح من أدى الزكاة ، وقرى الضيف ، وأعطى فى النأبة » .

( والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان ) أى والتابعون للفر يقين بالإحسان إلى عيم القيامة يقولون : ربنا اغفر لنا ذنوبنا ، واغفر لإخواننا فى الدين الذين سبقونا بالإيمان .

قال ابن أبى ليلي : الناس على ثلاث منازل : المهاجرين ، والذين تبوءوا الدار والإيمان ، والذين جاءوا من بعدهم . فاجتهد ألا تخرج من هذه المنازل .

وفى هذه الآية دليل على وجوب محبة الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، لأنه جعل لمن بعدهم حظاً فى النفى ما أقاموا على محبتهم وموالاتهم والاستغفار لهم ، ومن أبغضهم أو أبغض واحداً منهم أو اعتقد فيهم شراً فلاحق له فى النفى .

ويعاد بدعوا فى الدعاء بأنفسهم نقوله صلى الله عليه وسلم : « ابدأ بنفسك ثم بمن نعمل » .

( ولا تجعل فى قلوبنا غلاً للذين آمنوا ) أى ويدعون الله ألا يجعل فى قلوبهم حسداً وحقداً للمؤمنين جميعاً .

والحقد والحسد هما رأس كل خطيئة ، وينبوع كل معصية ، فهما يوجبان سفك الدماء والبغى والظلم والسرقة ، وسائر أنواع الفجور .

وصحوا الآية قوله فى سورة براءة « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ » .

وفي الآية إيماء إلى وجوب محبة مَنْ تقدمهم من المؤمنين ومراعاة حقوقهم لإخوتهم في الدين والسبق بالإيمان .

(ربنا إنك رؤوف رحيم) أي ربنا إنك عظيم الرأفة بعبادك ، كثير الرحمة بهم ، فأجب دعاءنا .

وفي الآية حثٌّ على الدعاء للصحابة ، وصفاء القلوب من بغض أحد منهم .

وعن ابن عمر أنه سمع رجلا وهو يتناول بعض المهاجرين فقراً عليه : « لِلْمُفْرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ » ثم قال : هؤلاء المهاجرون ، أفنهم أنت ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه « والذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ » الآية ، ثم قال هؤلاء الأنصار فأنت منهم ؟ قال لا ، ثم قرأ عليه : « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ » الآية ، ثم قال : أفن هؤلاء أنت ؟ قال أرجو ، قال : نيس من هؤلاء من سب هؤلاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصَرُّونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يَقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي فُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ ، بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ، تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ

اَكْفَرُ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦)  
فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧) .

## شرح المفردات

نافقوا : أى أظهروا غير ما أضمروا ، وبالغوا فى إخفاء عقائدهم ، والإخوان :  
الأصدقاء واحدهم أخ ، والأخ من النسب جمعه إخوة ، لنصرتهم : أى لتعاونكم ،  
ليؤان الأديار : أى ليفرثن هار بين ، أشد رهبة فى صدورهم من الله : أى إنهم يخافونكم  
فى صدورهم أشد من خوفهم لله ، لا يفقهون : أى لا يعلمون عظمتة تعالى حتى يخشوه  
حق خشيتة ، جميعاً : أى مجتمعين ، محصنة : أى بالدروب والخنادق وغيرها ، جذر :  
أى حيطان واحدها جذار ، بأسهم : أى حربهم ، وشتى : أى متفرقة ، واحدها  
شتيت ، وبال أمرهم : أى سوء عاقبتهم ، من قولهم : كلاً وبيل : أى وخيم  
سبي العاقبة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما حدث أبى النضير من الاستسلام خوفاً ورهبة ، لما  
قلده فى قلوبهم من الرعب ، ثم ذكر مصارف الفىء التى تقدمت — أردفه بذكر  
ما حصل من مناصحة المنافقين عبد الله بن أبى بن ساول ورفقته لأولئك اليهود ،  
وتشجيعهم لهم على الدفاع عن ديارهم ومحاربتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بما  
قصه الله علينا وفصله عنهم تفصيل ، ليكون فى ذلك عبرة لنا ؛ وإنا لنشهد كل يوم  
أن الناس يضل بعضهم بعضاً ويفترونهم ثم يتركونهم فى حيرة من أمرهم لا يجدون  
لهم مخلصاً مما وقعوا فيه .

أخرج ابن إسحق وابن المنذر وأبو نعيم عن ابن عباس : أنها نزلت فى رهط من

بنى عوف ، منهم عبد الله بن أبي بن سلول ، ووديعه بن مالك ، وسويد وداعس  
بعثوا إلى بنى النضير بنا قصة الله علينا في كتابه .

## الإيضاح

(ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لن  
أخرجكم لنخرجنّ معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً) . تقدم أن قلنا في غير موضع إن  
مثل هذا الأسلوب (ألم تر) يراد به التعجيب من حال الحدث عنه ، وأن أمره غاية  
في الغرابة ، وموضع الدهشة والخيرة .

فهؤلاء قوم من منافق المدينة لهم أقوال تخالف ما يبطنون ، منهم عبد الله بن أبي  
وشتيته رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شرع يحاصر بنى النضير ويقاقتهم ،  
فأرسلوا إليهم يقولون لهم : إنا قادمون لمساعدتكم بخيلنا ورجلنا ، ولأنسلمكم لحمد  
أبداً ؛ فجدوا في قتالهم ، ولا تهنوا في الدفاع عن دياركم وأموالكم ، حتى إذا اشتد  
الحصار ، وأوغل المسلمون في الدخول في ديارهم ، وتحريق نخيلهم ، وهدم بيوتهم  
رأى بنو النضير أن تلك الوعود كسر اب ببيعة يحسبه الظلمان ماء حتى إذا جاءه لم  
يجده شيئا ، وأنهم بين أمرين :

(١) الاستسلام وقبول حكم محمد عليهم .

(٢) إفناؤهم وتخريب ديارهم .

وقد أدخل الله لعب في قلوبهم ، فاختاروا الدنية ، وقبلوا الجلاء عن الديار  
واستبان لهم أن المنافقين كانوا كاذبين لأعوود لهم ولا وعود ، كما هو دائماً في كل  
زمان ومكان .

وبعد أن كذبهم على سبيل الإجمال كذبهم تفصيلا ليزيد تعجيب المخاطب  
من حالهم ، وإييين له مبالغ خبث طوييتهم ، وشدة جبنهم ، وفزعهم من القتال ،  
أن هذه الوعود أقوال كاذبة لا كتبها ألسنتهم وقلوبهم منها تراء فقال :

(لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون ) أى لئن أخرج بنو النضير من ديارهم فأجلوا عنها لا يخرج معهم المناقون الذين وعدوهم بالخروج من ديارهم ، ولئن قاتلهم محمد صلى الله عليه وسلم لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار منهزمين عن محمد وأصحابه ، هاربين منهم خاذلين لهم ، ثم لا ينصر الله بنى النضير .

وهذا إخبار بالغيب ، ودليل من دلائل النبوة ، ووجه من وجوه الإعجاز ، فإنه قد كان الأمر كما أخبر الله قبل وقوعه .

والخلاصة — إن بنى النضير أخرجوا فلم يخرج معهم المناقون ، وقوتلوا فما نصروهم ، ولو كانوا قد نصروهم لتركوا النصرة وانهزموا وتركوا أولئك اليهود في أيدي الأعداء .

ثم ذكر السبب في عدم نصرتهم لليهود والدخول مع المؤمنين في قتال فقال : ( لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ) أى إنهم يخافونكم أشد مما يخافون الله ، ومن ثم لم يجرؤوا على الدخول معكم في قتال ، وأسلفوا اليهود يحكم عليهم الرسول بما يشاء .

ثم ذكر سبب الرهبة لهم من دون الله فقال :

( ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ) أى وكانت هذه الرهبة لكم في صدورهم أشد من رهبتهم لله من أجل أنهم لا يفقهون قدر عظمتة تعالى ، فهم لذلك يستخفون بمعاصيه ولا يرهبون عقابه قدر رهبتهم لكم .

ونحو الآية قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » .

ثم أكد من اليهود والمناقين وشديد خوفهم منهم فقال :

( لا يقاتلونكم جميعا إلا فى قِرى محصنة أو من وراء جُدُر ) أى إن هؤلاء اليهود

والمنافقين قد ألقى الرعب في قلوبهم، فلا يواجهونكم بقتال مجتمعين، لأن الخوف والهلع بلغا منهم كل مبلغ، بل يقاتلونكم في قرى محصنة بالدروب والخنادق ونحوها، ومن وراء الجدر والحيطان وهم محاصرون.

ثم بين أن من أسباب هذا الجبن والخوف - التخاذل وعدم الاتحاد حين اشتداد الخطوب فقال :

( بأسيهم بينهم شديد ) أى بعضهم عدو لبعض، فلا يمكن أن يقاتلوا عدوا لهم وهم في تخاذل وتحاليل، ومن ثم استكانوا وذلوا.

وفي هذا عبرة للمسلمين في كل زمان ومكان، فإن الدول الإسلامية ما حدث كيائها، وأضعفها أمام أعدائها إلا تخاذلها أفرادا وجماعات، وانفراط عقد وحدتها، ومن ثم طمع الأعداء في بلادهم ودخلوها فاتحين وأذاقوا أهلها كؤوس الذل والهوان وفرقهم شذرا مذر، وجعلوهم عبيدا أذلاء في بلادهم واتهموا ثرواتهم، ولم يبقوا لهم إلا الثغاية وفئات الموتى. والله الأمر من قبل ومن بعد، وعسى الله أن يأتي بالفتح أو نصر من عنده، فيستيقظ المسلمون من سباتهم، ويتوجهوا إلى رشدهم، فيستعيدوا سابق مجدهم، وتداول الدولة لهم :

فيوما لنا ويوما علينا ويوما نساء ويوما نسر

ثم زاد ما سلف تؤكد فقال :

( تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ) أى إنك أيها الرسول إذا رأيتهم مجتمعين خلتهم متفقين وهم مختلفون غاية الاختلاف، لما بينهم من إحن وعداوات، فهم لا يتعاضدون ولا يتساندون ولا يرمون عن قوس واحدة.

وفي هذا تشجيع للمؤمنين على قتالهم، وحث للعزائم الصادقة على حربهم، فإن لمقاتل متى عرف ضعف خصمه ازداد نشاطا وازدادت حميته وكان ذلك من أسباب نصرته عليه.

ثم بين أسباب النفرة والتحلال الوحدة فقال :

( ذلك بأنهم قوم لا يفقهون ) أى ذلك التفريق من جرّاء أن آفدتهم هواء ، فهم قوم لا يفقهون سر نظم هذه الحياة ، ولا يعلمون أن الوحدة هى سر النجاح ، ومن ثم تتأذلوا وتفرقت كلمتهم ، واختلف جمعهم ، واستهان بهم عدوهم ، ودارت عليهم الدائرة .

ثم أرشد إلى أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الكافرين ، بل قد سبقهم غيرهم ممن كان حقه أن يكون عبرة لهم فقال :

( كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم ) أى مثل بنى النضير مثل اليهود من بنى قَيْنُقَاع الذين كانوا حول المدينة وغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم السبت فى شوال على رأس عشرين شهرا من الهجرة وأجلّاهم إلى أذرعات بالشام ، وذاقوا سوء عاقبة كفرهم إثر عصيانهم قبل وقعة بنى النضير التى كانت سنة أربع للهجرة .

والخلاصة - إنهم قد كانت لهم أسوة ببنى قَيْنُقَاع ، فخرجهم لازل دامية ، وآثار خذلانهم لازل بادية للعيان ، وقد كان من حق ذلك أن يكون عبرة ماثلة لهم ولكنهم قوم لا يفقهون ولا يعتبرون بالمثلثات التى يرونها رأى العين . ( ولهم عذاب أليم ) لا يقادر قدره ، ولا يعرف كنهه سوى علام الغيوب .

ثم ضرب لليهود والمنافقين مثلا آخر أشد نكالا وأوجع إيلا ما فقال :

( كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين ) أى مثل هؤلاء المنافقين الذين وعدوا اليهود من بنى النضير النصرة إن قتلوا ، أو أخرج معهم إن أخرجوا ، ومثل بنى النضير فى غرورهم بوعودهم وإسلامهم إياهم فى أشد حاجتهم إليهم وإلى نصرتهم - كمثل الشيطان الذى غرّ إنسانا ووعد النصرة عند الحاجة إليه إذا هو كفر بالله واتبعه وأطاعه ، فلما احتاج إلى نصرته أسلمه وتبرأ منه وقال : إني أخاف الله رب العالمين إذا أنا نصرتك ، لئلا يشركنى معك فى العذاب .

والخلاصة — إن مثل اليهود في اغترارهم بمن وعدوهم النصره من المنافقين بقولهم لهم : لئن قوتلتم لننصرنكم ، ولما جدَّ الجدَّ واشتدَّ الحصار والقتال تخلَّوْا عنهم وأسلموهم لله لُكَّة — كمثل الشيطان إذ سَوَّلَ للإنسان الكفر والعصيان ، فلما دخل فيه تبرأ منه وتنصل وقال : « إني أخاف الله رب العالمين » .

ولا تجد مثلاً أشدَّ وقعا على النفوس ، ولا أنكى جُرْحاً في القلوب من هذا المثل ، لمن اعتبر وادَّكر ، ولكنهم قوم لا يعقلون .

ثم ذكر عاقبة الناصح والمنصوح فقال :

( فكان عاقبتهما أنهما في النار خالدين فيها ، وذلك جزاء الظالمين ) أى فكان عاقبة الأمر بالكفر والداخل فيه — الخلود في النار أبداً ، وهكذا جزاء الظالمين لأنفسهم بالكفر كيهود بنى النضير والمنافقين الذين وعدوهم بالنصرة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ  
إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ  
أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ  
الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) .

### شرح المفردات

ما قدمت : أى أى شئ قدمت ، وغد : هو يوم القيامة ؛ سمي بذلك لقربه ، فكل آت قريب كما قال : وإن غداً لناظره قريب . نسوا الله : أى نسوا حقه فتركوا أوامره ، ولم ينتهوا عن نواهيه ، فأنساهم أنفسهم : أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدموا لها خيراً ينفعها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر المضلين من المنافقين ، و بين أن ما يقولون غير ما يطمنون ، وأن مشاهم كمثل الشيطان فى الإغواء والإضلال ، ثم أعقبه بذكر الضالين من بنى النصير وكيف خدعوا بتلك الوعود الخالصة التى كانت عليهم وبالا ونكالا ، وكان فيها سوء حالهم فى دنياهم ودينهم - شرع ينصح المؤمنين بلزوم التقوى ، وأن يعملوا فى دنياهم ما ينفعهم فى آخرهم حتى ينالوا الثواب العظيم ، والنعيم المقيم ، وألا يفسدوا حقوق الله ، فيجعل الرين على قلوبهم ، فلا يقدموا لأنفسهم ما به رشادهم وفلاحهم .

## الإيضاح

( يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ) فافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر .  
( ولتنظر نفس ما قدمت لغد ) أى وانتظروا ماذا قدمتم لآخرتم كما ينفعكم يوم الحساب والجزاء ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ، ولكنهم من توقع العذاب حيارى .  
( واتقوا الله ) تكرير للتوكيد ، لما يستدعيه الحال من التنبيه والحث على التقوى التى هى الزاد فى المعاد .

ثم وعد وأوعد وبشر وأنذر فقال :

( إن الله خبير بما تعملون ) أى إنه تعالى عليم بأحوالكم لا يخفى عليه شئ من شئونكم ، فراقبوه فى جليل أعمالكم وحقيقها ، واعلموا أنه سبحانه سيحاسبكم على النقيير والقطمير ، والقليل والكثير ، ولا يفوته شئ من ذلك .

ثم ضرب لهم الأمثال تحذيرا وإنذارا فقال :

( ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ) أى ولا يكن حالكم كحال قوم تركوا العمل بحقوق الله التى أوجبها على عباده ، فران على قلوبهم وأنساهم العمل

الصالح الذي ينجيهم من عقابه . فضلوا ضلالا بعيدا ، فجازاهم بما هم له أهل ، وما هم مستحقون ، جراء وفاقا لما دسوا به أنفسهم وأوقعوها في المعاصي والآثام ، ومن ثم حكم عليهم بالهلاك فقال :

( أولئك هم الفاسقون ) أى أولئك هم الذين خرجوا من ضاعة الله فاستحقوا عقابه يوم القيامة .

ونحو الآية قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

خطب أبو بكر فقال : أما تعلمون أنكم تغدون وتروحون لأجل معلوم ؟ فمن استطاع أن يقضى الأجل وهو فى عمل الله عز وجل فليقم ، ولن تنالوا ذلك إلا بتوفيق الله عز وجل ، إن قوما جعلوا آجالهم غيرهم فنهاكم الله عز وجل أن تكونوا أمثالهم فقال : « وَلَا تَسْكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ » أين من تعرفون من إخوانكم ؟ قديموا على ما قدموا فى أيام سلفهم ، وخلقوا بالشقوة والسعادة ، أين الجبارون الأولون الذين بنوا المدائن ، وحصنوها بالحوائط ؟ قد صاروا تحت الصخر والآبار ، هذا كتاب الله لا تنفى عجائبه ، فاستضيئوا منه ليوم ظلمة ، واستضيئوا بسنائه وبيانه . إن الله أثنى على زكريا وأهل بيته فقال تعالى : « إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ » لا خير فى قول لا يراد به وجه الله ، ولا خير فى مال لا ينفق فى سبيل الله ، ولا خير فى من يغلب جهله حلمه ، ولا خير فى من يخاف فى الله لومة لائم .

ثم وازن بين من يعمل الحسنات ، ومن يجترم السيئات فقال :

( لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ) أى لا يستوى الذين نسوا الله فاستحقوا

الخلود فى النار ، والذين اتقوا الله فاستحقوا الخلود فى الجنة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءٌ مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » وقوله : « أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُسَدِّينَ فِي الْأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ؟ » .

ثم بين عدم استوائهما فقال :

( أصحاب الجنة هم الفائزون ) أى أصحاب الجنة هم الفائزون بكل مطلوب ، الناجزون من كل مكروه .

وفى هذا تنبيه إلى أن الناس لفرط غفلتهم وقلة تفكيرهم فى العاقبة ، وتهالكهم على إظهار العاجلة ، واتباعهم للشهوات الفانية ، كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، وشاسع البون بين أصحابها ، وأن الفوز لأصحاب الجنة ، فمن حقهم أن يعلموا ذلك بعد أن نُبِّهوا له ، كما تقول لمن عقَّ أباه : هو أبوك - تجعله كأنه لا يعرف ذلك فتنبيهه إلى حق الأبوة الذى يقتضى البر والمطف .

لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى . يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤) .

## شرح المفردات

خاشعا : أى متقادا متذللا ، متصدعا : أى متشفقا ، خشية الله : أى خوفه وشديد عقابه ، الغيب : ما غاب عن الحسّ من العوالم التى لانراها ، والشهادة : ما حضر من الأجرام المادية التى نشاهدها ، القدوس : أى المنزه عن النقص ، السلام : أى الذى سلم الخلق من ظلمه إذ جعلهم على نُظُمٍ كفيلة برفيقهم ، المؤمن : أى واهب الأمن ، فكل مخلوق يعيش فى أمن ؛ فالطائر فى جوفه ، والحية فى وكرها ، والسماك فى البحر تعيش كذلك ، ولا يعيش قوم على الأرض ما لم يكن هناك حراس يجرسون قراهم وإلا هلكوا ، العزيز : أى الغالب على أمره ، الجبار : أى الذى جبر خلقه على ما أراد وقسرم عليه ، المتكبر : أى البليغ الكبرياء والعظمة ، سبحان الله عما يشركون : أى تنزه ربنا عما يصفه به المشركون ، الخالق : أى المقدر للأشياء على مقتضى الحكمة ، والبارئ : أى المبرز لها على صفحة الوجود بحسب السنن التى وضعها والغرض الذى خلقت له ، المصور : أى الموجد للأشياء على صورها ومختلف أشكالها كما أراد ، الأسماء الحسنى : أى الأسماء الدالة على محاسن المعانى التى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فنظم هذه الحياة وبدائع ما فيها دليل على كمال صفاته ، وكال الصفة يرشد إلى كمال الموصوف .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فرق المضلين من المنافقين والضالين من اليهود وغيرهم وأمر عباده المؤمنين بالتقوى ، استعدادا ليوم القيامة - ذكر هنا أن لهم مرشدا عظيما وإماما هاديا هو القرآن الذى يجب أن تخشع لهيبته القلوب ، وتتصدع لدى سماع عظاته الأفئدة ، لما فيه من وعد ووعيد وبشارة وإنذار وحكم وأحكام ، فلو أننا ألهمنا الجبل عقلا وفهية وتدبر ما فيه لخشع وتتصدع من خوف الله عز وجل ، فسكيف بكم

أيها البشر لاتلين قلوبكم ولا تخشع وتتصدع من خشيته ؟ وقد فهمتم عن الله أمره ،  
وتدبرتم كتابه .

وبعد أن وصف القرآن بالعظم أتبعه بوصف عظمة المنزل للقرآن ذى الأسماء  
الحسنى الذى يخضع له ما فى السموات والأرض وينقادون لحكمه وأمره ونهيه .

## الإيضاح

( لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ) أى  
لو جعل فى الجبل عقل كما جعل فيكم أيها البشر ، ثم أنزل عليه القرآن لخشع وخضع  
وتشقق من خشية الله .

وهذا تمثيل لعلو شأن القرآن وقوة تأثير ما فيه من المواعظ والزواجر ، وفيه  
توبيخ للإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه حين قراءة القرآن وتدبر ما فيه من القوارع  
التي تدل لها الجبال الراسيات .

( وتلك الأمثال نضربها للناس ليعلمهم يتفكرون ) أى وهذه الأمثال التي  
أودعناها القرآن وذكرناها فى مواضعها التي ضربت لأجلها ، واقتضاها الحال من  
نحو قوله : « وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَسْقَى  
فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ، وَإِنَّ مِنْهَا لَمَاءٌ يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » وقوله : « ثُمَّ قَسَتْ  
قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً » وقوله : « وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا  
سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّيَ بِهِ الْمَوْتَى » الآية — جعلناها  
تبصرة وذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ؛ فمن الناس من وقفه الله  
واهتدى بها إلى سواء السبيل ، وفاز بما يرضى ربه عنه ، ومنهم من أعرض عنها  
ونأى ، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ، وأدخله فى سقر ، وما أدراك ما سقر ،  
لاتبقى ولا تذر .

نم وصف سبحانه نفسه بجليل الصفات ، التي هي سر العظمة والجلال ، لخلاق الأرض والسموات فقال :

( هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ) أى إنه لأربّ غيره ، ولا إله فى الوجود سواه ، فكل ما يعبد من دونه من شجر أو حجر أو صنم أو ملك فهو باطل ، وهو يعلم جميع الكائنات الشاهدة لنا والغائبة عنا ، ولا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السموات ، وهو ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع الخلق ، فهو رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما .

( هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون ) أى هو الله المالك لجميع الأشياء ، المتصرف فيها بلا ممانعة ولا مدافعة ، المنزه عن كل عيب ونقص ، الذى أمن خلقه أن يظلمهم ، وهو الرقيب عليهم كما قال « وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ » وقال : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » والذى عز كل شئ فقهره ، وغلب الأشياء بعظمته وجبروته ، فلا تليق الجبرية إلا له ولا التكبر إلا لعظمته كما ورد فى الصحيح : « العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى ، فمن نازعنى واحداً منهما عذبت » تنزه ربنا عما يقوله المشركون من الصاحبة والولد فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

( هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى ) أى هو الله الخالق لجميع الأشياء المبرز لها إلى عالم الوجود على الصفة التى أرادها كما قال : « فِي أَى صُورَةٍ مَّأَشَاءُ رَكَّبْتُكَ » ، وله الصفات الحسنى التى وصف بها نفسه لا يشركه فيها أحد سواه .

( يسبح له ما فى السموات والأرض ) تقدم الكلام فى هذا فى مثل قوله : « تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

( وهو العزيز الحكيم ) أى وهو الشديد الانتقام من أعدائه ، الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفهم فيه صلاحهم ، فهو كامل القدرة كامل العلم .  
اللهم وفقنا للهدى والرشاد فى يوم المعاد .

### خلاصة ما حوته السورة الكريمة من المقاصد والأغراض

- (١) تنزيه الله نفسه عن كل نقص .
- (٢) ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه .
- (٣) تقسيم الفى الذى أخذ من بى الفضير مع ذكر المصارف التى يوضع فيها .
- (٤) أخلاق المنافقين المضلين ، وأخلاق أهل الكتاب الضالين مع ضرب المثل لهم .
- (٥) ذكر نصائح المؤمنين .
- (٦) إعظام شأن القرآن وإجلال قدره .
- (٧) وصف الله سبحانه نفسه بأوصاف الجلال والكمال .

## سورة الممتحنة

هى مدينة ، وآيها ثلاث عشرة ، نزلت بعد الأحزاب .  
ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه ذكر هناك موالاة الذين نافقوا للذين كفروا من أهل الكتاب ،  
وذكر هنا نهى المؤمنين عن اتخاذ الكفار أولياء ، لئلا يشبهوا المنافقين .  
(٢) إنه ذكر هناك المعاهدين من أهل الكتاب ، وذكر هنا المعاهدين  
من المشركين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ  
إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ، يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ  
وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي  
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ، تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ  
وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِنْ يَشْقَوْكُمْ يَكُونُوا  
لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالشُّوْءِ وَوَدُّوا  
لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ  
الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) .

## شرح المفردات

تلقون إليهم بالمودة : أى ترسلون إليهم أخبار الرسول بسبب المودة التى بينكم  
وبينهم ، يخرجون الرسول وإياكم : أى من مكة ، أن تؤمنوا بالله : أى لأجل

إيمانكم بالله ، ضل : أى أخطأ ، وسواء السبيل : أى الطريق المستوى وهو طريق الحق ، إن يتفقوكم : أى يظفروا بكم ، وأصل الثقف : الخدق فى إدراك الشئ وفعله ومنه رجل ثقف نَف ، بالسوء : أى بما يسوءكم من القتل والأسر والشتم ، وودّوا لو تكفرون : أى وتمنوا كفركم ، أرحامكم : أى قراباتكم ، يفصل بينكم : أى يفرق بينكم من شدة الهول .

### المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم وغيرهما «أن سارة التى كانت مغنية وناطقة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب أن يعطوها ما يدفع حاجتها ، فأعطوها نفقة وكسوة وحملوها ، فجاءها حاطب بن أبى بلتعة (مولى عبد الله بن حميد بن عبد العزى) فأعطاه عشرة دنانير وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، هذا صورته :

من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم خذوا حذرکم ، فأخبره جبريل به ، فبعث إليها عليا وعمارا وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد وكانوا فرسانا . وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع) فإن بها ظعينة (امرأة) معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة ، فخذوه منها وخلوها فإن أبت فاضربوا عنقه ، فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال على : والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه وقال لها : أخرجى الكتاب . أو ألقى ما معك من الثياب ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فأحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا وقال له : ما حملك عليه ؟ فقال : يا رسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قرش ، ولم أكن من أنفسها . وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهلهم وأموالهم ، فحبيت إذ فاتنى النسب فيهم

أن أصدّقه إليهم يدا يحمون بها قرابتي ، وما فعلت ذلك كفرا ولا ارتدادا عن ديني ، فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل عذره ، فقل عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فنزلت : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ» الآية .

### الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ) أى لا تجعلوا الكفار أنصارا وأعوانا لكم .

ثم فسر هذه الموالاة فقال :

(تلقون إليهم بالموادة) أى تباغضونهم أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم التى لا ينبغي لأعدائه أن يطلعوا عليها من خطط حربية ، أو أعمال نافعة فى نشر دينه وبثّ دعوته بسبب ما بينكم وبينهم من موادة .

ثم ذكر أن مما يمنع هذا الاتحاد أمرين :

(١) (وقد كفروا بما جاءكم من الحق) أى وقد كفروا بالله ورسوله وكتابه الذى أنزله عليكم ، فكيف بكم بعد هذا تجعلونهم أنصارا وتسرون إليهم بما ينفعهم ويضر رسولكم . ويعوق نشر دينكم .

(٢) (يخرجون الرسول وأئيانا) أى يخرجون الرسول وأصحابه من بين أظهرهم كراهة لما هم عليه من التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده ولم يكن لهم جريرة ولا جرم سوى ذلك .

ونحو الآية قوله : «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ» وقوله : «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ» .

وفى هذا تهيبج لهم على عداوتهم وعدم موالاتهم ، ثم زادهم تهيبجا بقوله :

( إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ) أى إن كنتم خرجتم مجاهدين فى سبيلى ، باغين مرضاتى عنكم ، فلا توالوا أعدائى وأعداءكم وقد أخرجوكم من دياركم حنقا عليكم وسخطا لدينكم .

ثم توعد من يفعل ذلك وشدّد النكير عليه وذكر ما فيه أعظم الزجر له فقال :  
( ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ) أى ومن يفعل هذه الموالاة ويبلغ أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم لأعدائه فقد جار عن قصد الطريق التى توصل إلى الجنة ورضوان الله تعالى .

ثم ذكر أمورا أخرى تمنع موالاتهم فقال :

( ١ ) ( إن يشقوكم يگونهوا لكم أعداء ) أى إن يظفر بكم هؤلاء الذين تسرون إليهم بالمودة يگونهوا حربا عليكم ويفعلوا بكم الأفاعيل .

( ٢ ) ( ويسطوا إليكم أيديهم وأستهم بالسوء ) أى ويمدوا أيديهم وأستهم لقتالكم وذاكم وستبكم وشتمكم ، فكيف ترونهم على هذه الحال وتتخذونهم أصدفاء وأولياء .

( ٣ ) ( وودوا لو تكفرون ) أى وتمنوا لو تكفرون بربكم ، لتكونوا على مثل الذى هم عليه ، فعداوتهم لكم كامنة وظاهرة .

والخلاصة — إن هؤلاء يودون لكم كل ضر وأذى فى دينكم ودنياكم ، فكيف بكم بعد هذا تمدون إليهم حيال المودة ، وتوثقون عرا الإخاء ، فهذا مما لا يرشد إليه عقل ، ولا يهدى إليه دين .

ثم ذكر أن ما جعلوه سببا من المحافظة على الأهل والولد لا ينبغي أن يقدم على شئون الدين فقال :

( لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة ) أى لن تنفعكم يوم القيامة أقاربكم

ولا أولادكم الذين توالون المشركين لأجلهم ، وتقرّبون إليهم محاماة عنهم — فتدفع  
عنكم عذاب الله إن عصيتموه في الدنيا وكفرتكم به .

ثم بين السبب في عدم نفعهم فقال :

( يفصل بينكم ) أى يفرّق الله بينكم وبينهم بما يكون من الهول الموجب لفرار  
كل منكم من الآخر كما قال : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ  
وَبَنِيهِ ، إِكْلًا امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

ثم أوعد من يفعل ذلك فقال :

( والله بما تعملون بصير ) أى والله بأعمالكم ذو بصيرة بها ، لا يخفى عليه شيء  
منها ، فهو محيط بها جميعها . ومجازيكم عليها ، إن خيرا خيرا ، وإن شرا فشر ، فاتقوا  
الله في أنفسكم واحذروه .

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا  
لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ  
وَبَدَأَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا  
قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ،  
رَبَّنَا عَلَيْنِكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً  
لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ رَنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ  
لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ، وَمَنْ  
يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) .

## شرح المفردات

الأسوة : ( بضم الهمزة وكسرهما وبهما قرئ ) من يؤتى به ، كالقدوة لمن يقتدى به والجمع أسمى ، برآء واحد من برىء كظرفاء وظريف : أى متبرئون ومنكرون لما يعملون ، وما تعبدون : أى الأصنام والسكواكب وغيرها ، البغضاء : أى البغض والكراهة ، لا تجمعنا فتنة للذين كفروا : أى لا تسلطهم علينا فيفتنونا بعباد لا نحتمله ، من قولهم : فتن الفضة : أى أذابها ، يرجو الله : أى يؤمل ثوابه ، واليوم الآخر : أى مجيئه ، ومن يتول : أى ومن يعص النصيحة .

## المعنى الجملى

بعد أن أنكر عليهم موالاتهم للكافرين ، وذكر لهم الموانع التى تمنع من ذلك كإخراجهم من الديار ، وتمنى الكفر لهم ، وصددهم عن هداية الدين وكفرهم بالرسول وبما جاء به ، وأنهم متى وجدوا سبيلا لأذاهم بقول أو فكر سلكوه غير آبهين لصلة رحم ولا قربى — أ كد هنا ذلك فأمرهم أن يأتسوا بإبراهيم وأصحابه إذ تبرءوا من قومهم وعادوهم وقالوا لهم : إنا برآء منكم ، قال القراء : يقول أفلا تأسيت يا حاطب بإبراهيم حين تبرأ من أهله ؟ لتعلم أن الحب فى الله والبغض فى الله من أوثق عرى الإيمان .

## الإيضاح

( قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ) أى قد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم خليل الرحمن تقتدون به وبالذين معه من أتباعه المؤمنين حين قالوا لقومهم الذين

كفروا بالله وعبدوا الطاغوت : أيها القوم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله من الآلهة والأنداد .

ثم فسر هذه البراءة بقوله :

( كفرنا بكم ) أي جحدنا ما أنتم عليه من الكفر ، وأنكرنا عبادتكم ما تعبدون من دون الله ، فلا نعتمد بكم ولا بآلهتكم ، فإن ما أنتم عليه لا تقره العقول الراجحة ، ولا الأحلام الحصيفة : فما قيمة الأحجار والأصنام التي تتخذونها معبودات ترجون منها النفع والضرر « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْنُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

(وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) أي وهانحن أولاء قد أعلننا الحرب عليكم ، فلا هوادة بيننا وبينكم ، وسيكون هذا دائماً معكم ، لا نترككم بحال حتى تتركوا ما أنتم عليه من الشرك ، فتتقلب العداوة ولاية ، والبغضاء محبة .

( إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ) أي لكم في إبراهيم وقومه أسوة حسنة تتأسون بها إلا في استغفار إبراهيم لأبيه ، فإنه إنما كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه .

وقد كان بعض المؤمنين يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الشرك ويستغفرون لهم ويقولون : إن إبراهيم كان يستغفر لأبيه فأُنزل الله عز وجل : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ، وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ؛ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ » .

والخلاصة — لا تجاملوهم ولا تبذروا لهم الرأفة وتستغفروا لهم ، كما فعل إبراهيم لأبيه ، لأنه إنما استغفر له قبل أن يتبين له أنه عدو لله ، فلما مات على الكفر تبين

له ذلك ، فترك الاستغفار ، وأنتم قد استبانتم لكم عداواتهم بكفرهم بالرسول ، وإخراجكم من الديار ، فلا ينبغي أن تستغفروا لهم .

(وما أملك لك من الله من شيء) أى وليس فى وسعى إلا الاستغفار لك ، ولا أستطيع أن أنفعك بأكثر من هذا ، فإن أراد الله عقوبتك على كفرك فلا أدفعها عنك .

ثم أخبر عن قول إبراهيم والذين معه حين فارقوا قومهم وتبوءوا منهم ولجئوا إلى الله وتضرعوا إليه :

(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) أى ربنا اعتمدنا عليك فى قضاء أمورنا ، ورجعنا إليك بالتوبة مما تكره إلى ما تحب وترضى ، ومصيرنا إليك يوم تبعثنا من قبورنا ، وتحشرنا إلى موقف العرض والحساب .

(ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) قال قتادة : أى لا تظهرهم علينا فيفتنونا بذلك ، يرون أنهم إنما ظهروا علينا لحقهم عليه .

(واغفر لنا يا إلهنا) أنت العزيز الحكيم (أى واستر لنا ذنوبنا بعفوك عنها ، إنك أنت الذى لا يضرهم من لاذ بجنايته . الحكيم فى تدبير خلقه ، وصرفه إياهم فيما فيه صلاحهم .

ثم أعاد ما تقدم مبالغة فى الحث على الانسواء بإبراهيم عليه السلام ومن معه .  
(لقد كان نسكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر) أى لقد كان لكم أيها المؤمنون قدوة حسنة فى إبراهيم ومن آمن معه من أتباعه المؤمنين ، لمن كان منكم يرجو لقاء الله وجزيل ثوابه ، والنجاة فى اليوم الآخر .

وفى هذا تهيبج إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعرض عليهما بالنواجذ ، وبيان أنهما ملاك الأمر كله يوم العرض والحساب .

ثم أوعد على تركهما بقوله :

(ومن يتول فإن الله هو الغنى الحميد) أى ومن أعرض عما نذبه الله إليه منكم

وأدبر واستكبر ، ووالى أعداء الله وألقى إليهم بالمودة فلا يضرن إلا نفسه ، فإن الله غنى عن إيمانه وطاعته ، بل عن جميع خلقه ، محمود بأيديه وآلائه عليهم .  
ونحو الآية قوله تعالى : « إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً ،  
وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ  
فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ  
وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ ، وَمَنْ  
تَوَلَّاهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) .

### شرح المفردات

عسى : كلمة تفيد رجاء حصول ما بعدها ، فإذا صدرت من الله فما بعدها واجب الوقوع ، أن تبرؤهم : أى تفعلوا البر والخير لهم ، وتقسطوا إليهم : أى تعدلوا فيهم بالبر والإحسان ، المقسطين : أى العادلين ، وظاهروا : أى ساعدوا ، أن تولوهم : أى أن تكونوا أولياء وأنصاراً لهم .

### المعنى الجملى

لما نهاهم عن موالاة الكفار وإلقاء المودة إليهم ، وضرب لهم المثل بإبراهيم وقومه — حملهم ذلك على أن يظهروا براءتهم من أقرابهم ، والتشدد في معاداتهم

ومقاطعتهم ، وكان ذلك عزيزاً على نفوسهم ، ويتمنون أن يجدوا المخلص منه —  
أردف ذلك سبحانه بأنه سيفير من طباع المشركين ، ويفرس في قلوبهم محبة الإسلام ،  
فيتمّ التوادّ والتصافى بينكم وبينهم .

وفي ذلك إزالة للوحشة من قلوب المؤمنين ، وتطيب لقلوبهم ، وقد أنجز الله  
وعده ، فأتاح للمسلمين فتح مكة ، فأسلم قومهم ، وتم لهم ما كانوا يريدون من  
التحابّ والتوادّ . ثم رخص لهم في صلة الذين لم يقاثلوهم من الكفار ولم يخرجوهم  
من ديارهم ، ولم يظاهروا على إخراجهم .

روى أحمد في جملة آخرين عن عبد الله بن الزبير قال : قدمت قُتَيْلَةَ بنت  
عبد العزّي على ابنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا — صناب ( صباغ يتخذ من الخردل  
والزبيب ) وأقِطٍ وسمن وهي مشركة : فأبّت أسماء أن تقبل هديتها أو تدخل بيتها ،  
حتى أرسلت إلى عائشة رضي الله عنها أن تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن  
هذا فسألت فأَنْزَلَ اللهُ «لَا يَنْبَأُ كُمْ اللهُ» الآية ، فأمرها أن تقبل هديتها وتدخلها  
بيتها ؛ وقال الحسن وأبو صالح : نزلت الآية في خزاعة وبنى الحرث بن كعب وكنانة  
ومُزَيْنَةَ وقبائل من العرب ، كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا  
يقاتلوه ولا يعينوا عليه .

## الإيضاح

( عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير والله غفور  
رحيم ) أى لعل الله يجعل بينكم وبين أعدائكم من كفار مكة محبة بعد البغض ،  
ومودة بعد النفرة ، وألفةً بعد الفرقة ، والله قدير على ما يشاء ، فيؤلف بين القلوب  
بعد العداوة ، غفور لخطيئة من ألقى إليهم بالمودة إذا تابوا منها ، رحيم بهم أن يعذبهم  
بعد التوبة .

وقد تمّ ذلك بفتح مكة حين دخل المشركون في دين الله أفواجا ، وتمّ بينهم التصافى والتصاهر ، وكان بينهم أتم ما يكون من وثيق الصلات كما قال تعالى : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ) وقال : ( هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِفَضْلِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ) .

ثم أباح لهم صلة الذين لم يقاتلهم من الكفار فقال :

( لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ) أى لاينهاكم الله عن الإحسان إلى الكفار الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، ولم يعاونوا على إخراجكم ، وهم خزاعة وغيرهم من كانوا عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ترك القتال والإخراج من الديار ، فأمر الله رسوله بالبر والتوفاء لهم إلى مدة أجلهم .

ثم زاد الأمر إيضاحا وبيانا فقال :

( إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ) أى إنما ينهاكم عن موالاته الذين ناصبوكم العداوة فقاتلوكم وأخرجوكم أو عاونوا على إخراجكم كمشركى مكة ، فإن بعضهم سمعوا في إخراج المؤمنين ، وبعضهم أعان الخرجين .

ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال :

( ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ) لأنهم تولوا غير الذين يجوز لهم أن يتولوهم ، ووضعوا ولايتهم في غير موضعها ، وخالفوا أمر الله في ذلك .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ ،  
 اللَّهُ أَعْلَمُ بِالْإِيمَانِ ، فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ،  
 لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ، وَآتُوهُنَّ مَا أَنْفَقُوا ، وَلَا جُنَاحَ  
 عَلَيْكُمُ أَنْ تَنْكِحُواهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ ، وَلَا تُنْسِكُوا  
 بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ ، وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ، ذَلِكَمُ  
 حُكْمُ اللَّهِ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِنْ فَاتَكُمْ  
 شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَمَا يَقْبَلُهُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ  
 مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ مُؤْمِنُونَ (١١)

### شرح المفردات

فامتحنوهن : أى فاخبروهن بما يغلب به على ظنكم موافقة قلوبهن لألسنتهن  
 فى الإيمان ، علمتموهن : أى ظننتموهن ، إلى الكفار ، أى إلى أزواجهن الكفار  
 أجورهن : أى مهرهن ، وعصم : واحداها عصمة ، وهى ما يعصم به من عقد وسبب ،  
 والكوافر : واحدتهن كافرة : فعاقبتم : أى فكانت العقبي لكم ، أى الغلبة  
 والنصر لكم ، حتى غنمتم منهم .

### المعنى الجملى

الكافر المعاند لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة :

(١) أن يستمر على عناده ، وإلى مثله أشار بقوله : « قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ  
 حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ » الآية .

- (٢) أن يرجى منه أن يترك العناد ، وإلى مثله أشار بقوله : « عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً » .
- (٣) أن يترك العناد ويستسلم ، وإلى ذلك أشار بقوله : « إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ » الآية .

## الإيضاح

(يأيتها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن) أى إذا جاءكم أيها المؤمنون النساء اللاتي نطقن بالشهادة ولم يظهر منهن ما يخالف ذلك — مهاجرات من بين الكفار فاخبروا حالهن ، وانظروا هل توافق قلوبهن ألسنتهن ، أو هن منافقات ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للممتحنة : بالله الذى لا إله إلا هو ، ما خرجت من بغض زوج ، بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، بالله ما خرجت التماساً لدنيا ، بالله ما خرجت إلا حباً لله ورسوله .

ثم ذكر جملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ليتبين أن الامتحان يفيد معرفة الظاهر فحسب فقال :

(الله أعلم بإيمانهن) منكم وهو يتولى السرائر ، وفى هذا بيان أنه لاسبيل إلى ما تطمئن إليه النفس من الإحاطة بحقيقة إيمانهن ، فإن ذلك مما استأثر الله بعلمه .

(فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار) أى فإن غلب على ظنكم إيمانهن بالخلف وغيره مما يورث اطمئنان قلوبكم على إسلامهن ، فلا تردوهن إلى أزواجهن المشركين .

ثم بين العلة فى النهى عن إرجاعهن بقوله :

(لاهن حلّ لهم ولاهم يحلون لهن) أى لا المؤمنات حلّ للكفار ، ولا الكفار يحلون للمؤمنات .

(وأتوهم ما أنفقوا) أى وأعطوا أزواجهن مثل ما أنفقوا من المهور .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم عام الحديبية أمر علياً أن يكتب بالصلح  
فكتب : باسمك اللهم ، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو . اصطالحوا  
على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، تأمن فيه الناس ويكف بعضهم عن بعض  
على أن من أتى محمداً من قریش بغير إذن وإليه رده إليه ، ومن جاء قریشاً من محمد  
لم يردده إليه ، وأن بيننا عيبة مكعوفة ، وأن لا إسلال ولا إغللال ، وأن من أحب  
أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قریش  
وعهده دخل فيه . فرد رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا جندل بن سهيل ،  
ولم يأت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدٌ من الرجال إلا ردّه في مدة العهد وإن  
كان مسلماً ، ثم جاءت المؤمنات مهاجرات ، وكانت أولاهن أم كلثوم بنت عتبة بن  
أبي معيط ، فقدم أخوها عمار والوليد فكلماه في أمرها ليردها إلى قریش فنزلت  
الآية ، فلم يردّها عليه الصلاة والسلام ، ثم أنكحها زيد بن حارثة .

وعن مقاتل أنه جاءت امرأة تسمى سبئية بنت الحرث الأسلمية مؤمنة ، وكانت  
تحت صيفي بن الراهب وهو مشرك من أهل مكة فطلب ردّها فأرسل سبجانه الآية  
فلم يردّها وأعطاه ما أنفق ، وتزوجها عمر رضي الله عنه .

ومن هذا تعلم أن الآية بيّنت أن العهد الذي أعطى كان في الرجال دون النساء  
ومن ثم لم يردهن حين جئن مؤمنات .

( ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتهن أجورهن ) أي ولا إثم عليكم  
ولا حرج في نكاح هؤلاء المؤمنات المهاجرات ، بشرط أن تتعهدوا بالمهور ،  
وتلتزموا بأدائها .

وإنما جاز هذا لأن الإسلام حال بينهن وبين أزواجهن الكفار ، فكان من  
المصلحة أن يكون لهن عائل من المؤمنين يكفل أمر أزواجهن .

( ولا تمسكوا بعصم الكوافر ) أي إنه لا ينبغي أن يكون علاقة من علاقات

الزوجة بين المؤمنين ونسائهم المشركات الباقيات في دار الشرك ، فلا يمنع نكاح إحداهن نكاح خامسة أو نكاح أختها ما دامت في العدة ، لأنه لا عدة لهن .

(واسألوا ما أنفقتم) أى واسألوا الكفار مهور نسائكم اللاحقات بهم إذا ارتددن ولحقن بهم .

(وليسألوا ما أنفقوا) أى وليسألكم الكفار مهور نسائكم المهاجرات إليكم ، والمراد أن عليكم أن تؤدوا لهم ذلك .

(ذلكم حكم الله يحكم بينكم) أى ذلكم الذى ذكر هو حكم الله فاتبعوه ، يحكم به بينكم فلا تخالفوه .

(والله عليم حكيم) فلا يشرع إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

(وإن فاتكم شئ من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهب أزواجهم مثل ما أنفقوا) أى وإن ذهب أزواجكم مرتدات إلى دار الشرك ولم يعطوكم المهور اللاتى دفعت لهن ، ثم ظفرتن بالمشركين وانتصرتن عليهن فأعطوا الذين ذهب أزواجهم من الغنيمة مثل ما أنفقوا .

روى عن ابن عباس أنه يعطى الذى ذهب زوجته من الغنيمة قبل أن تخمس أى قبل أن تقسم أخماسا ، كما هى القاعدة في تقسيم الغنائم كما تقدم في سورة الأنفال . (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) أى وخافوا الله الذى أنتم به مصدقون ، فأدّوا فرائضه ، واجتنبوا نواهيه .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَلَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ، وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهْتَانٍ يَفْتَرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ ، فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٢) .

## شرح المفردات

يباعنك : أى يلتزم لك الطاعة ، ولا يقتلن أولادهن : أى ولا يئدن البنات والمراد باليهتان المغترى بين أيديهن وأرجلهن : الولد الذى كانت ألصقته بزوجهما كذباً ، والافتراء : الكذب ، فى مع. وف : أى فى أمر برّ وتقوى ، فباعون : أى فالتزم لهم ضمان الثواب إذا وفين بهذه الأشياء .

## المعنى الجملى

روى البخارى عن عروة بن الزبير أن عائشة رضى الله عنها قالت : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يمتحن من هاجر إليه بهذه الآية : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ - إلى قوله : غَفُورٌ رَحِيمٌ » فمن أقرت بهذا الشرط من المؤمنات قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم « قد بايعتك » كلاماً ، ولا والله ما مست يده يد امرأة فى المبايعة قط ، ما بايعهن إلا بقوله : قد بايعتك على ذلك . وروى أحمد عن أميمة بنت رقية التيمية قالت : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نساء لنبايعه ، فأخذ علينا ما فى القرآن : أَلَّا نُشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئاً - حتى بلغ - وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَقَالَ : فَمَا اسْتَطَعْتِ وَأَطَقْتِ ، قلنا الله ورسوله أرحم بنا من أنفسنا ، قلنا يا رسول الله : أَلَّا تَصَاحِفْنَا ؟ قَالَ إِنِّى لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ ، إِنَّمَا قَوْلِى لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٌ قَوْلِى لِمِائَةِ امْرَأَةٍ » .

## الإيضاح

أى أيها النبي إذا جاءك النساء المؤمنات مقدمات لك الطاعة ، ملتزمات ألا يشركن بالله شيئاً من صنم أو حجر ، ولا يسرقن من مال الناس شيئاً ، ولا يزني ، ولا يئدن البنات كما كنّ يفعلن ذلك فى الجاهلية ، ولا يلصقن أولاد

الأجانب بأزواجهن كذبا وبهتاناً ، ولا يعصينك فيما تأمرهن به أو تنهاهن عنه كالنَّوح وتمزيق الثياب وجز الشعر وشق الجيوب وخش الوجوه ، وألا تخلو امرأة بغير ذى رحم محرم - فبايعهن على ذلك ، والتزم لهن الوفاء بالشواب إن هن أطعنك فى كل ذلك ، واطلب لهن المغفرة من الله ، إنه هو الغفور الرحيم لمن إذا وقين بما بايعن عليه .

وعن عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة قالت : « جاءت فاطمة بنت عُتْبَةَ تباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ عليها : أَلَا يَشْرِكُنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَمْرُقْنَ وَلَا يَزْنِينَ » الآية ، قال فوضعت يدها على رأسها حياء فأعجبه ما رأى منها ، فقالت عائشة : أقرسى أيتها المرأة ، فوالله ما بايعنا إلا على هذا ، قالت فنعم ، فبايعها بالآية » .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، قَدْ يَلْسُوْا مِنْ  
الْآخِرَةِ كَمَا يَلْسُ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣) .

### شرح المفردات

غضب الله عليهم : أى طردهم من رحمته ، من لآخرة . أى من ثوابها ونعيمها ،  
من أصحاب القبور . أى من رجوع موتاهم إليهم ، لأنهم لا يعتقدون ببعث  
ولا نشور .

### المعنى الجملى

نهى سبحانه أول السورة عن موالاته المشركين ، وذكر الموانع التى تمنع من  
موالاتهم ، ثم أوعد على ذلك ، ولما كان الأمر فى ذلك جدَّ خطير فى سياسة الدولة

الإسلامية ونشر الملة - كرر النهى عن موالاته الكافرين مرة أخرى ، يهودا كانوا أو نصارى ، ليكون عظة وذكرة لحاطب بن أبى بلتعة ومن ناحيته ممن يفضلون توثيق الصلات الدينيّة على مصلحة الدعوة الدينيّة ، ويجعلون شئون الدنيا مقدّمة على شئون الدين .

روى أن قوما من فقهاء المؤمنين كانوا يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ، ليصيبوا من ثمارهم فنزلت الآية .

### الإيضاح

( يأيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم ) أى لاتتخذوا اليهود والنصارى وسائر الكفار ممن غضب الله عليهم واستحقوا الطرد من رحمته - أولياء لكم وأصدقاء تسرون إليهم بما يضر نشر الدعوة ، ويحول دون تقدم شئون الملة . ثم بين أوصافهم ومعتقداتهم فقال :

( قد يؤسوا من الآخرة كما يؤس الكفار من أصحاب القبور ) أى قد يؤسوا من خير الآخرة وثوابها ، اعنادهم رسول الله صلى الله عليه وسلم المبشّر به فى كتبهم ، المؤيد بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات : فهم قد أفسدوا آخرتهم بتكذيبهم له وعلموا أن لاسبيل لهم انيل نعيمها ، كما يؤس الكفار من بعث موتاهم ، لأنهم لايعتقدون ببعث ولا نشور .

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله .

## خلاصة موضوعات هذه السورة الكريمة

- (١) النهي عن موالاة المشركين مع ذكر أسباب ذلك .
  - (٢) ضرب المثل بقصص إبراهيم وقومه .
  - (٣) امتحان النساء المؤمنات المهاجرات وعدم إرجاعهن إلى دار الكفر .
  - (٤) مبايعة النساء المؤمنات في دار الإسلام .
  - (٥) تأكيد النهي عن موالاة المشركين ، حرصا على شئون الملة ، ونشر الدعوة .
-

## سورة الصف

هى مدنية وعدد آياتها أربع عشرة ، نزلت بعد التغابن .  
ومناسبتها ما قبلها - أنها اشتملت على الحث على الجهاد والترغيب فيه ،  
وفى ذلك تأكيد للنهى الذى تضمنته السورة السابقة من اتخاذ الكفار أولياء من  
دون المؤمنين .

روى أحمد بسنده عن عبد الله بن سلام قال . تذاكرنا أيكم يا نبي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فيسأله . أى الأعمال أحب إلى الله ؟ فلم يبق منا أحد ، فأرسل  
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلينا رجلا فجمعنا فقرأ علينا هذه السورة .  
( الصف ) كها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١)  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ  
تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا  
كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوعٌ (٤) .

## شرح المفردات

(لِمَ) أى لأى شئ تقولون قد فعلنا كذا وكذا ، وأنتم لم تفعلوا ؟ والمراد بذلك  
التأنيب والتوبيخ على صدور هذا الكذب منهم ، كبر : أى عظم ، والمقت : أشد  
البغض وأعظمه ، ورجل مقيت ومقوت إذا كان يبغضه كل أحد ، والمرصوص :

المحكم، قال المبرد: تقول رصصت البناء إذا لاأمت بين أجزأه وقاربته حتى يصير كقطعة واحدة .

## المعنى الجملى

قال ابن عباس : كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون : لودنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به ، فأخبر الله نبيه أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله لاشك فيه ، وجهاد لأهل معصيته الذين جحدوا الإيمان به ، وإقرار برسالة نبيه ، فلما نزل الجهاد كره ذلك ناس من المؤمنين وشق عليهم أمره فأزل الله الآية .

## الإيضاح

( سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم ) أى شهد له بالربوبية والوحدانية والقدرة وغيرها من صفات الكمال جميع ما فى السموات والأرض ، وهو الغالب على أمره ، القاهر فوق عباده ، الحكيم فى تدبير خلقه وفق ماسئته من السنن ، وأرشد إليه من ضروب الهداية .

وبعد أن وصف نفسه بصفات الكمال ذكر ما يلحق المخلوقين من صفات النقص فقال :

( يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون ؟ ) أى لأى شئ ولأى غرض تقولون لودنا أن نعمل كذا وكذا من أفعال الخير حتى إذا طلب منكم ذلك كرهتم ولم تفعلوا ؟

والتوبيخ والإنكار موجه إلى عدم فعلهم ما وعدوا به ، وإنما وجه إلى القول لبيان أن معصيتهم مذكورة ، وأنهم عملوا جرمين . فهم تركوا فعل الخير . وقد وعدوا بفعله .

وبهذه الآية استدلل السلف على وجوب الوفاء بالوعد ، وبما ثبت في السنة من قوله صلى الله عليه وسلم « آية المنافق ثلاث : إذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

ثم بين شدة قبح ذلك وأنه بلغ الغاية في بقض الله له فقال :  
(كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون) أى عظم جرماً ما عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون .

ذاك أن الوفاء بالوعد دليل على كريم الشيم ، وجميل الخصال ، وبه تكون الثقة بين الجماعات ، فترتبط برابط المودة والمحبة حين يتعامل بعض أفرادها مع بعض ، ويكونون يدا واحدة فيما انتموا من الأعمال ، والعكس بالعكس ، فإذا فشا في أمة خف الوعد قلت الثقة بين أفرادها ، وانحلت عرا الروابط بينهم وأصبحوا عقدا متناثرا لا ينتفع به ، ولا يخشى منهم عدو إذا اشتدت الأزمات ، وعظمت الخطوب ، لما يكون بينهم من التواكل ، وعدم ائتمان بعضهم بعضا .

وبعد أن ذمّ المخالفين في أمر القتال وهم الذين وعدوا ولم يفعلوا ، مدح الذين قاتلوا في سبيله وبالغوا فيه فقال :

(إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) أى إن الله يحب الذين يصفون أنفسهم حين القتال ولا يكون بينهم فرج فيه كأنهم بنيان متلاحم الأجزاء ، كأنه قطعة واحدة قد صُبَّت صبا ، وعلى هذه الطريقة تسير الجيوش في العصر الحاضر .

وسر هذا أنهم إذا كانوا كذلك زادت قوتهم المعنوية ، وتنافسوا في الطمان والنزال ، والكر والفر . إلى ما في ذلك من إدخال الرّوع والفرع في نفوس العدو ، إلى ما لحسن النظام من إمضاء العمل بالدقة والإحكام ، ومن ثم أمرنا بتسوية الصفوف في الصلاة ، وألا يجلس المصلي في صف خافي إلا إذا اكتمل ما في الصف

الأممى ، وهكذا تراعى الأمم في عصرنا الحاضر النظام في كل أعمالها ، في أكلها ونومها ورياضتها وتربية أولادها ، بحيث لا يطفى عمل على عمل ، فلجِد وقت لا يعدوه ، وللرياضة وقت آخر ، وللنوم كذلك ، ولهذا لا يوجد تواكل ولا تراخ في الأعمال ، ولا تخاذل فيها ، ومن ثم جاء في الأثر .  
« أفضل الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » .

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ : يَا قَوْمِ لِمَ تَتُودُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ؟ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) .

### شرح المفردات

تؤذونني : أى تخالفون أمرى بترك القتال ، زاغوا : أى أصروا على الزيف والانحراف عن الحق الذى جاء به موسى عليه السلام ، أزاع الله قلوبهم : أى صرفها عن قبول الحق ، الفاسقين : أى الخارجين عن الطاعة ومنهاج الصدق المصرين على الغواية ، وأحمد : من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال حسان :  
صلى الإله ومن يحفّ بعرشه والطيبون على المبارك أحمد

### المعنى الجملى

بعد أن أُنّب التاركين للقتال الهاربين منه بقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟ » ذكر هنا أن حالهم يشبه حال بنى إسرائيل مع موسى حين نذيرهم إلى قتال الجبارين

بقوله : « يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » فلم يمتثلوا أمره وعصوه أشد العصيان ، و« قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَ دَخَلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا . إِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ » وقالوا : « فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وأصرروا على ذلك وآذوه أشد الإيذاء ، فوجههم على ذلك بما جاء فى الآية الكريمة ، وقد صرفهم الله عن قبول الحق وألحق بهم الضيم والذل فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أشد وأُنكى . ومثلمهم أيضا فى عصيانهم مثل بنى إسرائيل حين قال لهم عيسى : إني رسول الله ، وجاءهم بالبينات والمعجزات الدالة على صدقه وقال : إني مبشر برسول سيأتى من بعدى يسمى أحمد ، فعصوه وكذبوه ولم يمتثلوا أمره .

### الإيضاح

( وإذ قال موسى لقومه يا قوم لم تؤذوننى وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم ؟ ) أى وإن ذكرتم ملك خبر عبده ورسوله موسى بن عمران كليم الله حين قال لقومه : لم تؤذوننى وتخالفون أمرى فتتركوا القتال وأنتم تعلمون صدقى فيما جئتكم به من رسالة ربى ؟ وفى هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فيما أصابه من قومه الكافرين ومن غيرهم ، وأمره بالصبر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « رحمة الله على موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر » كما أن فيه نهيا للمؤمنين أن ينالوا من النبى صلى الله عليه وسلم أو يوصلوا إليه أذى كما جاء فى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَحِيماً » .

ثم بين عاقبة عصيانهم ومخافة أمره بقوله :

( ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ) أى فلما عدلوا عن اتباع الحق مع علمهم به ، وأصرّوا على ذلك ، صرف الله قلوبهم عن الهدى ، وأسكنها الخيرة والشك ، جزاء

وفاقا لما دسوا به أنفسهم من الذنوب والآثام ، ومخالفة أوامر رسوله ، وانهما كهم في الطغيان والمعاصي ، فران على قلوبهم ، وطمس على أعينهم ، فلم تنظر إلى ما شاهد من دليل ، ولا تبصر ما ترى من برهان كما قال : « وَتَقَبُّ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

ثم أكد إزاعته لقلوبهم وبين علتها بقوله :

(والله لا يهدي القوم الفاسقين) أى والله لا يوفق لإصابة الحق من اختار الكفر ونبذ طاعة الله ورسوله ، بما يرين على قلبه من الضلالة ، فيحرمه النظر إلى الأدلة التى نصبت فى الكون ، وجعلت منارا للعقول ، وشفاء للصدور .

( وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ) أى واذكر لقومك ما قال عيسى ابن مريم لقومه : يا قوم إني مرسل إليكم من الله ، وإني مصدق بالتوراة وبكتب الله وأنبيائه جميعا من تقدم منهم ومن تأخر .

( ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ) أى وداعيا إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذى جاءت البشارة به فى التوراة ، فقد جاء فى الفصل العشرين من السفر الخامس منها : أقبل الله من سيناء ، وتجلي من ساعير ، وظهر من جبال فاران ، معه الربوات الأطهار عن يمينه . « سيدنا مهبط الوحي على موسى ، وساعير مهبط الوحي على عيسى ، وفاران جبل مكة مهبط الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم » .

وفيهما فى الفصل الحادى عشر من هذا السفر : يا موسى إني سأقيم لبنى إسرائيل نبيا من إخوانهم مثلك ، أجعل كلامي فى فيه ، ويقول لهم ما أمره به . والذى لا يقبل قول ذلك النبى الذى يتكلم باسمى ، أنا أنتقم منه ومن سبطه .

وكذلك جاء فى الإنجيل ماهو إشارة به — فى إنجيل يوحنا فى الفصل الخامس عشر . قال يسوع المسيح : إن الفارقليط روح الحق الذى يرسله أبى ، يعلمكم كل شىء .

وفيه أيضا : قال المسيح من يحفظ كلمتى يحبنى ، وأبى يحبه ، وعنده يتخذ المنزلة ، كلمتكم بهذا لأنى لست عندكم بمقيم ، والفارقليط روح القدس الذى يرسله أبى هو يعلمكم كل شىء ، وهو يذكركم كل ماقلت لكم ، أستودعكم سلامى ، لاتقلق قلوبكم ولا تجزع ، فإنى منطلق وعائد إليكم ، لو كنتم تحبوننى تفرحون بمضى إلى الأب .

وفيه أيضا : إن خيرا لكم أن أنطلق لأبى ، لأنى إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء فهو يوضح العالم على خطيئته ، وإن لى كلاما كثيرا أريد قوله ، ولكنكم لانتطيعون حمله ، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذى يرشدكم إلى جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بما يسمع ، ويخبركم بكل ما يأتى ، ويعرفكم جميع ما للأب .

( والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد ، فسرره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحمد ، فى مدلوله إشارة إلى اسمه عليه السلام أحمد ) كما لا يخفى على من كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه .

( فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين ) أى فحين جاءهم أحد المبشرين به بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، فاجثوه بالكذب والإعراض عنه استكبارا وعنادا وقالوا : إن ما جئت به ماهو إلا ترهات وأباطيل ، وسحر واضح لاشك فيه . ونحو الآية قوله تعالى : « الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ » الآية .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ ؟  
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ

وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ  
بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) .

### شرح المفردات

الإسلام : الاستسلام والانقياد والخضوع لله عز وجل ، والمراد من إبطال نور  
الله بأفواههم إرادتهم بإبطال الإسلام ، بنحو قولهم هذا سحر مفترى ، والله متم  
نوره : أى والله متم الحق ومبلغه غايته ، بالهدى : أى بالقرآن ، ودين الحق : أى بالملة  
السمحة ، ليظهره : أى ليعليه ، على الدين كله : أى على سائر الأديان .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الجاحدين لنبوته صلى الله عليه وسلم من المشركين  
وأهل الكتاب لما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مفترى — أردف ذلك ببيان أنهم  
دعوا إلى الإسلام والخضوع لخالق الخلق ومبدع العالم ، وأقيمت لهم على ذلك الأدلة  
ونصب لهم المنار ، لكنهم ظموا أنفسهم وجحدوا النور الواضح ، والبرهان الساطع .  
قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم  
ثم بين أن السبب في ذلك هو سوء استعدادهم وتدسياتهم لأنفسهم ، وأن مثلهم  
في صد الدعوة عن الدين مثل من يريد إطفاء نور الشمس بالنفخ بفيه ، وأنى له بذلك ؟  
فإنه متم نوره ، ومكمل دينه مهما جدد المشركون في إطفائه ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم  
ما جاء إلا بما فيه هداية البشر وسعادتهم في معاشهم ومعادهم ، وبالدين الحق  
الذى لا تجدد العقول مطعنا فيه ، ولا طريقا إلا الاعتراف بما جاء به من حكم  
وأحكام .

## الإيضاح

(ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام ؟) أى ومن أشد ظلما وعدوانا ممن اختلق على الله الكذب وجعل له أندادا وشركاء وهو يدعى إلى التوحيد والإخلاص ؟

وتلخيص المعنى — أى الناس أشد ظلما ممن يدعى إلى الإسلام والخضوع ، فلا يجيب الداعى بل يفترى على الله الكذب بتكذيب رسوله وتسمية آياته سحرا ؟ والمراد أنه أظلم من كل ظالم ، لأنه قد أهدر عقله ، وركب هواه ، وألقى الأدلة وراءه ظهريا .

ثم بين سبب ظلمهم وفساد عقائدهم فقال :

(والله لا يهدي القوم الظالمين) أى والله لا يرشد الظالمين لأنفسهم إلى ما فيه صلاحهم ورشادهم ، لأنهم دسّوها باجتراح السيئات ، وارتكاب الموبقات ، فغم على قلوبهم ، وجعل على أبصارهم غشاوة ، فلا تفهم الأدلة المنصوبة في الكون ، ولا تهتدى بهدى العقل ، بل تسير في عماية ، وتمشى في ظلام دامس لا تلوى على شيء . ثم ذكر جدّم واجتهادهم في إبطال الدين ، واستهزا بما اتخذوه من الوسائل فقال : يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ( أى إن مثلهم في مقاومتهم لدعوة الدين ، وجدّم في إخماد نوره — مثل من ينفخ في الشمس بفيه ليطفى نورها ، ويحجب ضياءها ، وأنى له ذلك ؟ فما هو إلا كمن يضرب في حديد بارد ، أو كمن يريد أن يضرم النار في الرماد ، أو كمن يريد أن يصطاد العنقاء .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعانداً من تطيق له عنادا

(والله متم نوره ولو كره الكافرون) أى والله معلى الحق ومظهر دينه ، وناصر محمدا عليه الصلاة والسلام على من عاداه ولو كره ذلك الكافرون به .

روى عن ابن عباس « أن الوحي أبطأ أربعين يوماً فقال كعب بن الأشرف : يا معشر يهود أبشروا ، أطفأ الله نور محمد فمما كان ينزل عليه ، وما كان ليتم نوره ، فحزن الرسول صلى الله عليه وسلم فبزلت : يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ » الآية .  
ثم بين العلة في إخماد دعوتهم ، وأنه لا سبيل لقبولها لدى العقول فقال :  
( هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ) أى هو الله الذى أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم بالقرآن والملة الحنيفية ، ليعليه على جميع الأديان الخافعة له ، وقد أنجز الله وعده ، فلم يبق دين من الأديان إلا وهو مغلوب مقهور بدين الإسلام .

وإنما قال أولا : ولو كره الكافرون ، وقال ثانيا ولو كره المشركون ، لأنه ذكر أولا النور وإطفاءه فاللائق به الكفر ، لأنه ستر وتغطية ، وذكر ثانيا الحاسدين للرسول وأكثرهم من قريش ، فناسب ذكر المشركين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَضْرَ مِنْ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ : مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ : نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، فَاْمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَائِفَةٌ ، فَأَيُّدُنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)

## شرح المفردات

التجارة هنا : ما يقدمه المرء من عمل صالح ، لينال به الثواب كما قال سبحانه : « إِنْ لِّلّٰهِ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ اَنْفُسَهُمْ وَاَمْوَالَهُمْ بِاَنْ لَّهُمُ الْجَنَّةَ » طيبة : أى طاهرة مستلذة ، جنات عدن : أى بساين إقامة وخلود ، قريب : أى عاجل وهو فتح مكة ، وحوارى الرجل : صفيه وخليله ، وأنصار الله : أى الناصرون لدينه ، فأيدنا : أى قوينا وساعدنا ، على عدوهم : أى الكفار ، ظاهرين : أى غالبيين .

## المعنى الجملى

بعد أن حث في الآيات السابقة على الجهاد في سبيله ، ونهاهم أن يكونوا مثل قوم موسى في التواكل والتخاذل ، إذ قالوا له : اذهب أنت وربك فقاتل إنا هاهنا قاعدون ، ونهاهم أيضا عن أن يكونوا مثل قوم عيسى في العصيان بعد أن أتى لهم بالأدلة الباهرة على صدق نبوته - ذكر هنا أن الإيمان بالله والجهاد بالمال والنفس في سبيله تجارة رابحة ، فإن المجاهد ينال الفوز العاجل ، والثواب الآجل ، فيظفر بالنصرة في الدنيا والغلبة على العدو وأخذ الغنائم وكراهم الأموال ، ويحظى في الآخرة بغفران الذنب ، ورضوان الرب ، والكرامة في جنات الخلود والإقامة ، ولا فوز أعظم من هذا .

ثم ضرب لهم مثلا بقوم عيسى فقد انقسموا فرقتين : فرقة آمنت به وهم حواريه ، وفرقة كفرت به وهم البقية الباقية منهم ، فأمد الله المؤمنين بروح من عنده ، فتم لهم الفوز والنصر على الكافرين ، وغلبوهم بإذن الله كما هي سنة الله في البشر كما قال : « كَتَبَ اللّٰهُ لَآغْلِبَنَّ اَنَا وَّرُسُلِيْ اِنَّ اللّٰهَ قَوِيٌّ عَزِيْزٌ » وقال : « اِنْ تَنْصُرُوْا اللّٰهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ اَقْدَامَكُمْ »

## الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) أى يأيها الذين آمنوا بالله وصدقوا رسوله : ألا أدلكم على صفقة رابحة ، وتجارة نافعة ، تنالون بها الربح العظيم ، والنجح الخالد الباقي .

وهذا أسلوب يفيد التشويق والاهتمام بما يأتى بعده ، كما تقول : هل أدلك على عالم عظيم ذى خلق حسن ، وعلم فياض ؟ هو فلان ، فيكون ذلك أروع فى الخطاب وأجلب لقبوله .

ثم بين هذه التجارة بقوله :

(تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم) أى اثبتوا على إيمانكم ، وأخلصوا لله العمل ، وجاهدوا بالأنفس والأموال فى سبيل الله بنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

والجهاد ضروب شتى : جهاد للعدو فى ميدان القتال لنصرة الدين ، وجهاد للنفس بقرها ومنعها عن شهواتها التى تردى بها ، وجهاد بين النفس والخلق بترك الطمع فى أموالهم والشفقة عليهم والرحمة بهم ، وجهاد فيما بين المرء والدنيا بألا يتكالب على جمع حظائها ، وألا ينفق المال إلا فيما تميزه الشرائع ، وتقره العقول السليمة .

(ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون) أى هذا الإيمان والجهاد خير لكم من كل شئ فى الدنيا من نفس ومال وولد ، إن كنتم من أهل الإدراك والعلم بوجوه المنافع وفهم المقاصد ، فإن الأمور إنما تتفاضل بغاياتها ونتائجها .

ولهذه التجارة فوائد عاجلة وأخرى آجلة ، وقد فصل كلا الأمرين وقدم

الثانية فقال :

(يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة

في جنات عدن ذلك الفوز العظيم) أى إن فعلتم ذلك فآمنتم بالله وصدقتم رسوله ، وجاهدتم في سبيله — سترنكم ذنوبكم ومحاسنها ، وأدخلكم فراديس جناته وأسكنكم مساكن تطيب لى النفوس ، وتقر بها العيون في دار الخلد الأبدى ، وهذا منتهى ما نسمو إليه النفوس من الفوز الذى لا فوز بعده .

ثم ذكر الفوز العاجل في الدنيا فقال :

(وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) أى ولكم على هذا فوز في الدنيا بنصركم على عدوكم ، وفتحكم للبلاد ، وتمكينكم منها حتى تدين لكم مشارق الأرض ومغاربها .

وقد أنجز الله وعده ، فرفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من العالم في زمن وجيز لم يعهد التاريخ نظيره ، وامتدكوا بلاد القياصرة والأباطرة ، وساسوا العالم سياسة شهد لهم بفضلها العدو قبل الصديق .

ثم أمرهم بأن يكونوا أنصار الله في كل حين ، فلا يتخاذلوا ولا يتواكلوا ، فيكتب لهم النصر على أعدائهم كما فعل حوارى عيسى فقال :

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصارى إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله) أى يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، فارعوا شأن دينه ، وأعلوا كلمته ، كما فعل الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم : من أنصارى إلى الله ؟ قالوا له : نحن أنصار الله وأنصار دينه .

وقصارى ذلك — كونوا أنصار الله في جميع أعمالكم وأقوالكم ، وأنفسكم وأموالكم ، كما استجاب الحواريون لعيسى .

(فآمنت طائفة من بنى إسرائيل وكفرت طائفة) لما بلغ عيسى عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه ، ووازره من الحواريين من وازره ، اهتدت طائفة من بنى إسرائيل بما جاءهم به ، وضت طائفة أخرى إما جحوداً لرسالته ورميه هو وأمه بالعظائم كما فعل اليهود ، وإما بالغلو وإعطائه فوق ما أعطاه الله من مرتبة النبوة ؛

فمن قائل إنه ابن الله ، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة ، الأب والابن وروح القدس ، ومن قائل إنه الله .

(فأيدينا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) أى فنصرنا المؤمنين على من عداهم ، وأمددناهم بروح من عندنا على مقتضى سنتنا « والعاقبة للمتقين » فغلبوا أعداءهم وظهروا عليهم كما قال « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » فله الحمد على ما أعطى ، والمنة على ما أنعم ، وصل ربنا على محمد وآله .

### ما جاء في أثناء السورة من موضوعات

- (١) اللوم والتعنيف على مخالفة القول للعمل .
- (٢) البشارة بمحمد على لسان عيسى .
- (٣) محمد صلى الله عليه وسلم أرسل بالهدى والدين الحق .
- (٤) التجارة الرابحة عند الله هي الإيمان والجهاد في سبيله .
- (٥) الأمر بنصرة الدين كما نصر الحواريون دينهم .

## سورة الجمعة

مدنية وعدد آياتها إحدى عشرة ، نزلت بعد الصف .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه ذكر في السورة قبلها حال موسى مع قومه وأذاه لهم ، ناعياً عليهم ذلك ، وذكر في هذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم وفضل أمته ، تشریفاً لهم ، ليعلم الفرق بين الاثنين .

(٢) إنه حكى في السورة قبلها قول عيسى : « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ » وذكر هنا : ( هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ) إشارة إلى أنه هو الذي بشر به عيسى .

(٣) لما ختم السورة قبلها بالأمر بالجهاد وسماء تجارة ، ختم هذه السورة بالامر بالجمعة ، وأخبر أن ذلك خير من التجارة الدنيوية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١) هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)

## شرح المفردات

القدوس : المنزه عن النقائص المتصف بصفات الكمال ، الأمين : هم العرب ، واحدهم أمى نسبة إلى الأم التي ولدته ، لأنه على الحال التي ولد عليها لم يتعلم الكتابة والحساب ، فهو على الجبلة الأولى ، يزكيهم : أى يظهرهم بتلاوة آياته ، وآخرين واحدهم آخر بمعنى غير ، لما يلحقو بهم : أى لم يلحقوا بهم بعدوسيلحقون ؛ وهم من جاء بعد الصحابة إلى يوم الدين .

## الإيضاح

(يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى كل ما فى السموات والأرض ، إذا نظرت إليه ذلك على وحدانية خالقه ، وعظيم قدرته ، كما قال سبحانه : «وَأَنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ» .

(الملك القدوس) أى هو المالك لما فى السموات والأرض المتصرف فيهما بقدرته وحكمته ، المنزه عن كل ما لا يليق بجلاله وكماله .

(العزيز الحكيم) أى هو الغالب عباده المسخر لهم بقدرته ، الحكيم فى تدبير شئونهم فيما هو أعلم به من مصالحهم ، ويوصلهم إلى سعادتهم فى معاشهم ومعادهم .

ثم وصف الرسول صلى الله عليه وسلم بصفات المدح والكمال فقال :

(هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) أى هو الذى أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم إلى الأمة الأمية التى لا تقرأ ولا تكتب وهم العرب ، أخرج البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» .

وهذا الرسول من جملتهم أى مثلهم ، ومع ذلك يتلو عليهم آيات الكتاب ،

ليجعلهم طاهرين من خبائث العقائد والأعمال ، ويعلمهم الشرائع والأمور العقلية التي تكمل النفوس وتهذبها ، وإلى ذلك أشار البوصيري بقوله :

كفاك بالعلم في الأُمى معجزةً في الجاهلية والتأديب في اليُمِّ

وتخصيص الأُميين بالذكر لا يدل على أنه لم يرسل إلى غيرهم فقد جاء العموم في آيات أخرى كقوله : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » وقوله : « قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » وقوله : « لَا نَذِرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » .  
ومن حكمته تعالى أنه أرسله عربيا مثلهم ، ليفهموا ما أرسل به ويعرفوا صفاته وأخلاقه ، ليسهل اقتناعهم بدعوته .

وخلاصة ماسلف : أنه ذكر الغرض من بعثة هذا الرسول ، وأجلها في أمور :

(١) أنه يتلو عليهم آيات القرآن التي فيها هدايتهم وإرشادهم لخير الدارين ، مع كونه أُميا لا يكتب ولا يقرأ ، لئلا يكون هناك مطعن في نبوته ، بأن يقولوا إنه نقله من كتب الأولين كما أشار إلى ذلك بقوله : « وَمَا كُنْتُ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُّهُ يَمِينُكَ إِذَا الْأَرْتَابَ اللَّيْطُونَ »

(٢) أنه يطهرهم من أدناس الشرك وأخلاق الجاهلية ، ويجمعهم منيبيين إلى الله محبتين إليه في أعمالهم وأقوالهم ، لا يخضعون لسلطة مخلوق غيره ، من ملك أو بشر أو حجر .

(٣) أنه يعلمهم الكتاب والحكمة : أي يعلمهم الشرائع والأحكام وحكمتها وأسرارها ، فلا يتلقون عنه شيئا إلا وهم يعلمون الغاية منه ، والغرض الذي يفعله لأجله ، فيقبلون إليه بشوق واطمئنان ، وقد تقدم مثل هذا في سورة آل عمران .

(وإن كانوا من قبل في ضلال مبين ) ذاك أن العرب قديما كانوا على دين إبراهيم ، فبدلوا وغيروا واستبدلوا بالتوحيد شركا ، وباليقين شكاً ، وابتدعوا أشياء لم يأذن بها الله ، فكان من الحكمة أن يبعث سبحانه محمداً صلى الله عليه وسلم

بشرع عظيم فيه هداية للبشر ، وبيان مآلهم في حاجة إليه من أمور معاشهم ومعادهم ودعوتهم إلى مآلهم رضوان ربهم ، والتمتع بنعيم جناته .  
ونهاهم عما يوجب سخطه ويقربهم إلى النار .

(وآخرين منهم لما يلحقوا بهم) أى وبعثه في غيرهم من المؤمنين إلى يوم القيامة وهم من جاءوا بعد الصحابة إلى يوم الدين من جميع الأمم كالفرس والروم وغيرهم .  
روى البخارى عن أبى هريرة قال : « كنا جلوساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فأنزلت عليه سورة الجمعة فتلاها ، فلما بلغ «وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ» قال رجل يارسول الله من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثاً ، قال وسلمان الفارسى فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : «والذى نفسى بيده لو كان الإيمان بالثرى لثناوله رجال من هؤلاء» .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو ذو العزة والسلطان ، القادر أن يجعل هذه الأمة المستضعفة صاحبة النفوذ والقوة التى تنشر في غيرها من الأمم روح العدل والنظام بإرسال رسول من أبنائها ينقذ الناس من الضلالة إلى الهدى ، ومن الظلمات إلى النور ، وهو الحكيم فيما يفعل من تدبير أمور الخلق لما فيه خيرهم وفلاحهم .

ثم ذكر سبحانه أن إرسال هذا الرسول فضل منه ورحمة فقال :

(ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى وإرسال هذا الرسول إلى البشر من كذا مطهر لهم ، هارياً معلماً ، فضل من الله وإحسان منه إلى عباده ، يعطيه من يشاء ممن يصطفيه من خلقه بحسب ما يعلمه من استعدادهم وصفاء نفسه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته .

وهو سبحانه ذو الفضل العظيم عليهم في جميع أمورهم في دنياهم وآخرتهم ، في معاشهم ومعادهم ، فلا يجعلهم في حيرة من أمرهم تنتابهم الشكوك والأوهام ، ولا يحدون للخلاص منها سبيلاً ، ولا يجعل قلوبهم يبطش بضعيفهم ويغتصب أموالهم

ويسمى في الأرض بالفساد ، ويهلك الحرث والنسل ، فيكون العالم ككرة تتقاذفها  
أكف اللاعبين ، فهو أرحم بعباده من أن يتركهم سدى هملاً لاصلاح لهم في دين  
ولادنيا .

مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا  
بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ (٥) قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّا كُفْرُكُمْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنَ  
دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦) وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا  
بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٧) قُلْ إِنَّا الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ  
مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ  
بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨)

### شرح المفردات

حَمَلُوا التَّوْرَةَ : أى عَمَلُوهَا وَكُفُّوا الْعَمَلُ بِهَا ، لَمْ يَحْمِلُوهَا : أى لَمْ يَمْلِكُوا بِهَا وَلَمْ  
يَنْتَفِعُوا بِهَا فِي تَضَاعُفِهَا ، وَالْأَسْفَارُ : وَاحِدُهَا سَفَرٌ وَهُوَ الْكِتَابُ الْكَبِيرُ ، هَادُوا :  
أى تَهَوَّدُوا وَصَدَرُوا يَهُودًا ، أَوْلِيَاءُ اللَّهِ : أى أَحِبَاءُ لَهُ ، بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ : أى بِسَبَبِ  
مَا اجْتَرَحُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي .

### المعنى الجملى

بعد أن أثبت سبحانه توحيد والنبوة ، وذكر أن الرسول بعث للناسين قُل  
اليهود : إن الرسول لم يبعث الله ، فرد الله عليهم مقلهم بأنهم لو فهموا التوراة حق  
(٧)

الفهم ، وعملوا بما فيها ، لرأوا فيها نعت الرسول والبشارة به ، وأنه يجب عليهم اتباعه وما مثلهم في حملهم لتوراة وتركهم العمل بها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يجديه حملها نفعاً .

ثم رد عليهم مقالا آخر إذ قالوا نحن أحباء الله وأوليائه وإنه لن يدخلنا النار إلا أياماً معدودات - بأنه لو كان ما تقولونه حقاً لتمنيت الموت حتى تخلصوا من هذه الدار دار الأكدار . وتذهبوا إلى دار النعيم ، وإنكم لن تفعلوا ذلك فأنتم كاذبون فيما تدعون ، ولم تفرون منه وهو ملاقيكم ولا محالة ؟ وهناك ترجعون إلى ربكم فينثلكم بما قدمتم من عمل ويجازيكم عليه ، إن خيراً وإن شراً .

## الإيضاح

( مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ) يقول سبحانه ذمًا لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ، ثم لم يعملوا بها : ما مثل هؤلاء إلا كمثل الحمار يحمل الكتب لا يدري ما فيها ، ولا كنه ما يحمل ، بل هم أسوأ حالا من الحمار ، لأن الحمار لا يفهم لها ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها في نفعهم ، إذ حرقوا التوراة فأوثقوها وبدلوها . فهم كما قال في الآية الأخرى : « أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

وصفة القوم : إن هذا النبي الذي تقولون إنه أرسل إلى العرب خاصة ، هو ذلك النبي المنعوت في التوراة والمبشر به فيها . فكيف تفكرون نبوته ، وكتابكم يحض على الإيمان به ؟ فما مثلكم في حملكم للتوراة مع عدم العمل بما فيها إلا مثل الحمار يحمل الكتب ولا يدري ما فيها ، فأنتم إذ لم تعملوا بما فيها وهي حجة عليكم إلا مثل الحمار ليس له إلا ثقل الحمل من غير انتفاع له بما حمل .

ثم بين عيب هذا المثل وشديد وقعته على من يعقله ويتدبره فقال :

( بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ) أى ما أقبح هذا مثلاً لهم ،  
لتكذيبهم بآيات الله التى جاءت على لسان رسوله لو كانوا يتدبرون ويتفكرون ،  
إذ لم يكن لهم ما يشبههم من ذوى العقول والحجا من ملك أو إنس ، بل لاشبهه لهم  
إلا ما هو أحقر الحيوان وأذلّه وهو الحمار .

ولا يُقيم على ضيّم يراد به إلا الأذلان عيّر الحى والود  
هذا على الخسف مروط برمته وذا يُشجّ فلا يرئى له أحد

( والله لا يهدى القوم الظالمين ) لأنفسهم الذين دسّوها حتى أحاطت بهم الخطيئة  
وأعمت أبصارهم ورائت على قلوبهم ، فقد تر نور الحق ، ولم تشعر بحجة ولا برهان ،  
بل هى فى ظلام دامس لاتتهدى لطريق ، ولا تصل إلى غاية .

ولما كان من شأن من لم يعمل بالكتاب الذى أنزل إليه أن يكون محباً للحياة  
تاركاً لكل ما ينفعه فى الآخرة قال أسرارسوله أن يقول لهم :

( قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت  
إن كنتم صادقين ) أى أيها اليهود إن كنتم تزعمون أنكم على هدى من ربكم ،  
وأن محمداً وأصحابه على ضلالة ، فدعوا بالموت على الضال من الفثنين ، إن كنتم  
صادقين فيما تزعمون ، وقد تقدم الكلام فى مثل هذه المباهلة (الملاعنة) لليهود فى سورة  
البقرة فى قوله : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ  
النَّاسِ فَمَتَّعُوا بِمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » كما تقدمت مباحلة النصارى فى آل عمران  
فى قوله : « قُلْ مَنْ حَاجُّكُمْ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا  
أَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى  
الْكَاذِبِينَ » ومماثلة المشركين فى قوله : « قُلْ مَنْ كَانَ فِي الصَّلَاةِ فليُذْكَرْ لَهُ  
بِرَّحْمَنِ كَدَا » .

ثم أخبر بأنهم إن يتمنوه أبداً لن يعلمون من سوء أفعالهم وفبيح أعمالهم فقال :

(ولا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ) أى ولا يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا لَعَلَّهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ  
لَكَفَرَهُمْ بآيَاتِ اللَّهِ وَتَدَسَّيْتَهُمْ أَنْفُسُهُمْ بِالْمَعَاصِي وَالشَّرُورِ وَالْآثَامِ .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : « والذى نفسى بيده لا يقولها  
أحد منكم إلا غَصَّ بريقه » : فلم يَتَمَنَّ أحد لعلمهم بصدقها وأيقنوا أنهم لو تَمَنَّوْهُ لَمَاتُوا  
لساعتهم ، وحق عليهم الوعيد ، وحل بهم العذاب الشديد .

(والله عليم بالظالمين) ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

(قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم) أى وماذا يجديكم الفرار من  
الموت ؟ ولماذا تَمْتَنِعُونَ من المباهلة خوفا على الحياة ؟ فإنه سيلاقيكم البتة من غير صارف  
يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، فإن كنتم على الحق فلا تَحْمِلُوا بالحياة ، فإن أيام الحياة مهما  
طال أمدھا لا بد من نفاذھا .

(ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) أى ثم ترجعون  
بعد مماتكم إلى عالم غيب السموات والأرض ، فيخبركم بما كنتم تعملون فى الدنيا من  
حسن وسيئ ، ثم يجازيكم على كلِّ بما تستحقون .  
وغير خاف ما فى هذا من شديد التهديد وعظيم الوعيد لو كانوا يعقلون .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى  
ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) فَإِذَا  
قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ  
كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠) وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا  
وَتَرَكَوْكَ قَائِمًا ، قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ  
الرَّازِقِينَ (١١) .

## شرح المفردات

نودى للصلاة : أى النداء الثانى الذى كان يفعل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج فجلس على المنبر ، أما النداء الأول على الزوراء ( أعلى دار بالمدينة حينئذ بقرب المسجد ) فقد زاده عثمان لكثرة الناس ، فاسعوا : أى فامشوا ، وذكر الله : هو الصلاة ، وذروا البيع : أى اتركوه ، فانتشروا : أى فتفرقوا ، من فضل الله : أى من رزقه ، والمراد باللهو : الطبول والمزامير ونحوها ، انفضوا : أى انصرفوا ، قائما : أى على المنبر وأنت تخطب .

## المعنى الجملى

بعد أن نعى على اليهود فرارهم من الموت حباً فى الدنيا والتمتع بطيبتها - ذكر هنا أن المؤمن لا يمنع من اجتناء ثمار الدنيا وخيراتها مع السعى لما ينفعه فى الآخرة كالصلاة يوم الجمعة فى المسجد مع الجماعة ، فعليه أن يعمل للدنيا والآخرة معا ، ففى الدنيا إلامزرعة الآخرة كما ورد فى الأثر « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

ثم نعى على المسلمين فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم تشاغلهم عن سماع عظاته وهو يخطب على المنبر بأمور الدنيا من تجارة وضرب دُفٍّ وغناء بالمزامير ونحو ذلك ، وأبان لهم أن ما عند الله من الثواب والنعيم المقيم خير لهم من خيرات الدنيا والتمتع بلذاتها الفانية .

## الإيضاح

( يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ) أى إذا أذن المؤذن بين يدى الإمام وهو على المنبر فى يوم الجمعة للصلاة

فاتركوا البيع واسعوا لتسمعون، موعظة الإمام في خطبته ، وعليكم أن تمشوا الهوينى بسكينة ووقار حتى تصلوا إلى المسجد .

روى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون ( تسرعون ) وأتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

وعن أبي قتادة قال : « بينما نحن نصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال ، فما صلى قال : ما شأنكم ؟ قالوا : استعجننا إلى الصلاة ، قال : فلا تفعلوا ، إذا أتيتم فامشوا وعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا . وما فاتكم فأتموا » رواه البخاري ومسلم .

( ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ) أى ذلكم السعى وترك البيع خير لكم من التشاغل بالبيع وابتغاء النفع الدنيوي ، فإن منافع الآخرة خير لكم وأبقى ، فهي المنافع الباقية ، أما منافع الدنيا فهي زائلة ، وما عند الله خير لكم إن كنتم من ذوى العلم الصحيح بما يضر وما ينفع .

ثم ذكر ما يفعلون بعد الصلاة فقال :

( فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ) أى فإذا أدبتم الصلاة فنتفروا لأداء مصالحكم الدنيوية بعد أن أدبتم ما ينفعكم فى آخرتكم ، واطلبوا الثواب من ربكم ، واذكروا الله وراقبوه فى جميع شئونكم ، فهو العليم بالسر والنجوى ، لا تخفى عليه خافية من أموركم ، لعلكم تفوزون بالفلاح فى دنياكم وآخرتكم .

وفى هذا إيماء إلى شيئين :

( ١ ) مراقبة الله فى أعمال الدنيا حتى لا يطنى عليهم حجبها بجمع حطامها بأى

الوسائل من حلال وحرام .

(٢) إن في مراقبته تعالى الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فلأن من راقبه لا يغش في كيل ولا وزن ولا يغير سبعة بأخرى ، ولا يكذب في مساومة ، ولا يحلف كذبا ، ولا يخلف موعدا ، ومتى كان كذلك شهر بين الناس بحسن المعاملة وأحبوه وصار له من حسن الأحداث ما يضاعف له الله به الرزق ، وأما في الآخرة فيفوز برضوان ربه « وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ كَبِيرٌ » وبجنت تجري من تحتها الأنهار ، ونعم أجر العاملين .

وعن عراك بن مالك رضى الله عنه أنه كان إذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد وقال : « اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتني ، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين » .

ثم عاتب سبحانه عباده المؤمنين على ما كان منهم من الانصراف عن الخطبة يوم الجمعة إلى التجارة التي قدمت المدينة يومئذ فقال :

( وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ) أى وإذا رأى المؤمنون غير تجارة أو لهوا أسرعوا وتركوك قائما وأنت تخطب الناس .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى في جماعة عن جابر بن عبد الله قال : « بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت غير (إبل محملة طعاما من دقيق وبرّ وزيت ) فابتدروا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق منهم إلا اثنا عشر رجلا أنا فيهم وأبو بكر وعمر فأنزل الله تعالى : وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ » .

والذى قدم بهذه التجارة دحية الكلبي من الشام ، وكان إذا قدم لم تبق عاتق ( الشابة حين أدركت ) بالمدينة إلا أته ؛ ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدمه ، فيخرجوا ليلتاعوا منه ، وكان ذلك طريق الإعلان عن التجارة حينئذ .

ثم رغبهم في سماع العظات فقال :

( قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة ) أى قل لهم مبينا خطأ ما عملوا :

ما عند الله مما ينفعكم في الآخرة خير لكم مما يفيدكم في الدنيا من التمتع بخيراتها ،  
وكسب لذاتها ، فتلك باقية ، وهذه فانية .

( والله خير الرازقين ) فإليه سبحانه فاسمعوا ، ومنه فاطلبوا الرزق ، ولن يفوتكم  
ذلك بسماع عطائه ، فإله كفيل برزقكم ، ولن ينقص بترككم البيع والشراء حين  
الصلاة ، وحين سماع لعظات والنصائح .

ولله الحمد في الآخرة والأولى ، وله الحكم وإليه ترجعون .

### خلاصة موضوعات السورة :

- (١) وصفه تعالى نفسه بصفات الكمال .
- (٢) صفات النبي الأمي الذي بعثه الله رحمة للعالمين .
- (٣) النعمى على اليهود نتركهم العمل بأحكام التوراة .
- (٤) طلب مباهاة اليهود .
- (٥) الحث على السعى للصلاة يوم الجمعة حين النداء والإمام على المنبر .
- (٦) الأمر بالسعى على الأرزاق بعد انقضاء الصلاة .
- (٧) عتاب المؤمنين على تركهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو يخطب قائما  
وتفرقهم لرؤية التجارة أو اللهو .

## سورة المنافقين

هي مدنية وآياتها إحدى عشرة نزلت بعد الحج .

ووجه اتصالها بما قبلها - أنه ذكر في الأولى حال المؤمنين الذين بعث إليهم النبي الأمي يتلو عليهم كتابه ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وأمرهم بالصلاة وترك البيع حين أدائها ، وفي هذه ذكر أضدادهم وهم المنافقون الذين يشهدون كذبا بأن محمدا رسول الله ويحفون الأيمان المخرجة على ذلك ، ومن ثم كان النبي يقرأ في صلاة الجمعة في الركعة الأولى بسورة الجمعة ، فيحرض بها المؤمنين على العبادة ، وفي الركعة الثانية بسورة المنافقين فيقرع بها المنافقين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خِشْبٌ مُسْنَدَةٌ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ، قَاتِلْهُمْ اللَّهُ ، أَتَى يَوْمَ فُكُونٍ (٤) .

## شرح المفردات

المنافق : من يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، حنة : أي وقاية وسترا لدنائهم وأموالهم ، آمنوا : أي بالسنتهم ، كفروا : أي بقلوبهم ، طبع : أي ختم عليها كما يحتم

بالطابع على ما يراد حفظه حتى لا يؤخذ منه شيء ، لا يفقهون : أى لا يعلمون ، تعجبك أجسامهم : أى لصباحتها وتناسب أعضائها ، تسمع لقولهم : أى لفصاحتهم وحسن حديثهم ، خشب : واحدها خشب ؛ وهى الخشبة التى تخرج جوفها ، والصيحة : الصوت ، فأنلهم الله : أى لعنهم وطردهم من رحمته ، يؤفكون : أى يصرفون عما هم عليه .

## المعنى الجملى

وصف الله تعالى المنافقين بأوصاف هى منتهى الشناعة والقيح :

- (١) أنهم كذابون يقولون غير ما يعتقدون .
- (٢) أنهم لا يبالون بالخلاف بالله كذبا ، ستر لنفاقهم ، وحقنا لدمائهم .
- (٣) أنهم جبناء ، فهم على ضخامة أجسامهم ، وفصاحة ألسنتهم ، يظنون أن كل مناد ينادى إنما يقصدهم للإيقاع بهم .

## الإيضاح

( إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ) أى إذا حضر مجلسك المنافقون كعبد الله بن أبى وصحبه قالوا نشهد شهادة لانك فى صدقها ، إنك رسول من عند الله حقا ، أوحى إليك وحيه ، وأنزل عليك كتابه . رحمة منه بعباده .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما قبلها وما بعدها ، تحقيقا لرسالته فقال :

( والله يعلم إنك لرسوله ) أى والله يعلم إنك لرسوله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ، لتتقدم من الضلال إلى الهدى .

ثم بين كذبهم فى مقالهم الذى حدثوا به فقال :

( والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ) فيما أخبروا به ، لأنهم لا يعتقدون صدق ما يقولون ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم فى هذه الشهادة .

ثم ذكر أنهم يحتالون على تصديق الناس لهم بكل يمين مُحَرَّجة فقال :  
 ( اتخذوا أيمانهم جنة ) أى جمعوا أيمانهم الكاذبة وقاية وسترا لحقن دمائهم  
 وحفظ أموالهم ، فيحلفون بالله إهم لمنكم ، ويقولون : نشهد إنك لرسول الله ،  
 حتى لا تجرى عليهم أحكام الكفار من القتل والأسر وأخذ الأموال غنيمة .  
 قال قتادة : كلما ظهر سليمهم ما يوجب مؤاخذتهم حلفوا كاذبين ، عصمة  
 لدمائهم وأموالهم .

وفى هذا تعداد لقبايح أفعالهم ، وأن من عادتهم أن يستجئوا بالإيمان الكاذبة ،  
 كما استجئوا بالشهادة الكاذبة .

ثم حكى عنهم جريمة أخرى وهى إضلال الناس وصددهم عن الإسلام فقال :  
 ( فصدوا عن سبيل الله ) أى فمنعوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وعن  
 لإتفاق كما حكى عنهم سبحانه بعد .

وقصارى ذلك — أنهم أجزموا جرّمين :

( ١ ) أعدوا الأيمان الكاذبة وهيئوها لوقت الحاجة ، ليحلفوا بها ويتخلصوا  
 من المؤاخذة .

( ٢ ) أنهم يمنعون الناس عن الدخول فى لإسلام وينفرونهم منه متى استطاعوا  
 إلى ذلك سبيلا .

ثم بين قبح مغبة ما يعملون ، ووبال ما يصنعون فقال :

( إنهم ساء ما كانوا يعملون ) أى قبح فعلهم إذ آثروا الكفر على الإيمان ،  
 وأظهروا خلاف ما أضرموا ، وسيلقون نكالا ووبالا فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فسيفضحهم الله على رءوس الأُمُهاد ، ويُظهر نفاقهم للمؤمنين  
 بنحو قوله : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ  
 كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » .

وأما في الآخرة فحسبهم جهنم وبئس المهاد .

ثم ذكر ما جرائهم على الكذب والاستخفاف بالإيمان المخرجة فقال :

( ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ) أى ذلك الذى فعلوه لسوء سريرتهم ، وقبح طويتهم ، فاستهاوا بما يأنون وما يذرون ، ولم يكن همهم إلا المحافظة على دماءهم وأموالهم ، ومن ثم أظهروا للناس إيماناً وأبطنوا كفراً ، وقد خُتم على قلوبهم فلا تهتدى إلى حق ، ولا يصل إليها خير ، ومن جرّاء ذلك عمّوا عما نصب من الأدلة على صدق الرسول ، وصمت الآذان عن سماع ما يوجب الإيمان ، فهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون .

ثم ذكر ما لهم من جمال في الصورة واعتدال في القوام فقال :

( وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ) أى لاستواء خلقهم ، وجمال صورهم .

كما وصفهم بالفصاحة وذراية اللسان فقال :

( وإن يقولوا تسمع لقولهم ) لحلاوة منطقهم وحسن توقيع حديثهم فإذا سمعهم سامع أحب أن يُصغى إليهم ، وأن يطول حديثهم جهّده الاستطاعة .

ثم وصفهم بأن أفندتهم هواء لاعتقول لهم ولا أحلام فقال :

( كأنهم خشب مسندة ) أى هم أشباح بلا أرواح ، لهم جمال في المنظر ، وقبح في المخبر ، فسدت بواطنهم ، وحسنت ظواهرهم ، فكانت كالخشب الجوفاء التى نخرها السوس ، فهى مع حسنها لا ينتفع فيها بعمل ، ولا يستفاد منها خير ، والله در أبى نواس :

لاتخذ عَنكَ اللحى ولا الشَّوْر تسعة أعشارٍ من ترى بقر

تراهم كالسراب منتشرا وليس فيه اطالب مطر

فى شجر السَّروِ منهم مَثَلٌ له رؤاء وما له ثمَر

ثم وصفهم بالجبن والذلة فقال :

( يحسبون كل صيحة عليهم ) أى كلما نادى مناد فى العسكر ، أو انفلتت دابة أو تشدت ضالة - ظنوا أن العدو قد نجأهم ، وأن أمرهم قد افتضح ، وأنهم هالكون لا محالة ، ولقد قالوا : يكاد المريب بقول خذونى ، ويكاد السارق يقول إذا رأى القيد : ضعوه فى يدى ، لما أتى من الرعب فى قلوبهم ، فهم يخافون أن تهتك أستارهم ، وتكشف أسرارهم ، وتوقعون الإيقاع بهم ساعة فساعة .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ » ، فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ ، تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَقَوْكُمْ بِالْمُنَّةِ حَذَادٍ » وقد نظر المتنبى إلى الآية فى قوله :

وضاقت الأرض حتى ظن هاربهم إذا رأى غير شئ ظن به رجلا  
( هم العدو ) الذى بلغ الغاية فى العداوة .

( فاحذرهم ) ولا تلمنهم على سر ، ولا تلتفت إلى ظاهرهم ، فقلوبهم متحرقة حسدا وبغضا ، وأعدى الأعداء العدو المداحى الذى يكاشرك ( يبتسم لك ) وتحت ضلوعه الداء الدوى ، والشر المستطير .

ثم زاد سبحانه فى ذمهم وتوبيخهم ، وعجب من حالهم فقال :  
( فاتلهم الله ) أى لعنهم الله وطردهم من رحمته ، فما أقطع حالهم ، وما أشدهم غفلة عن مآلهم .

وهذا نعيم منه لعباده المؤمنين أن يلعنوهم ، فكأنه قال : قولوا فاتلهم الله .  
( أتى يؤفكون ) أى كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ، وقد كان لهم مدكر فيما حوّلهم ، وفيما أمامهم من صدق الداعى بما أتى به من البيّنات الدالة على أنه مرسل من ربه .

وإن تعجب من شئ فاعجب من جهالتهم وظنهم الفاسد أنهم على الحق ، فما أعظمها محنة ، وأعجب بها نعمة ، جازاهم الله بها على سوء أعمالهم ، وقبح فعالهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ  
وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ  
أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى  
يَنْفَضُّوا ، وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧)  
يَقُولُونَ لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلُّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ  
وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) .

### شرح المفردات

لَوَّا رُءُوسَهُمْ : أى حوّلوا استمراء ، يصدون : أى يعرضون عن القائل ،  
الفاسيقين : أى الخارجين من طاعة الله وطاعة الرسول ، المنهمكين فى أنواع الشرور  
والآثام ، حتى ينفضوا : أى حتى يتفرقوا ، خزائن السموات والأرض : أى خزائن  
الأرزاق فيهما ، لا يفقهون : أى لا يعلمون علماً صادراً عن إدراك لجلال الله وقدرته ،  
والأعزّ : أى المنافقون ، والأذلّ فى زعمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه ،  
والعزة : الغلبة والنصر .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر كذب المنافقين فى قولهم للرسول صلى الله عليه وسلم : نشهد أنك  
رسول الله ، وبين شنيع أفعالهم ، بترويحها بالآيمان الفاجرة ، ثم أعقبه بذكر جبنهم  
وصلفهم ، وأنهم أجسام البغال ، وأحلام العصفير ، ثم أوردته ببيان أنهم أعداء الله  
حقاً ؛ أعقب هذا بذكر ماصدر منهم مما يثبت كذبهم ونفاقهم ، بما لا يدع شبهة لمن  
يلتمس لهم المعاذير ، ويبرئهم من النفاق ؛ فمن ذلك :

(١) أنهم إذا طلب منهم أن يتقدموا إلى الرسول ليستغفروا لهم على ما فرط منهم من الذنوب ، أما لو رءوسهم وأعرضوا استكباراً ونُفة أن يفعلوا .

(٢) أنهم قالوا: لئن رجعنا من وقعة بنى المصطلق (قبيلة من اليهود) إلى المدينة لنخرجن الأذلاء محمداً وصحبه معها .

ثم نعى عليهم ما قاتلوا بأنهم قوم لا حلوم لهم ، ولا هم يفقهون جليل قدرة الله وبديع صنعه .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين غزا بنى المصطلق علا المر يسيم (ماء لهم) وهزمهم وقتل وأسر — ازدحم على الماء جهججاه بن سعيد الغفارى ، وكان أجيراً لعمر بن الخطاب ، وستان الجهنى ، وكان حليف عبد الله بن أبى ، واقتتلا فصرخ جهججاه وقال: ياللمهاجرين ، وصرخ سنان وقال: ياللانصار ، فأعان جهججاه رجلاً من المهاجرين ولطم سنانا : فقال عبد الله بن أبى للمهاجرين : ما صحبنا محمداً إلا لنلطم ، والله ما مشنا ومثامهم إلا كما قال القائل : سمن كلبك يا كلك ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليمخرجن الأعز منها لأذل ، ثم قال لقومه : لو أمسكتهم عن هذا وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق قال : إذا ترعدت أنف كثيرة بيثرب ( يريد صلى الله عليه وسلم أنه يهيج الشر ) قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجر فأسر به أنصاري ، قال : فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه . ثم قال لعبد الله : أنت صاحب هذا الكلام الذى بلغنى ، قال : والله الذى أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئاً من ذلك ، وإن زيدا ( يريد زيد بن أرقم الذى بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ) لكاذب ، فنزلت هذه الآيات ، يقال رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد : يا غلام إن الله صدقك وكذب المنافقين ، فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آى شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر

لك ، فلوئى رأسه وقال : أمرتمونى أن أومن فأمّنت ، وأمرتمونى أن أزكى فزكيت . ومابقى إلا أن أسجد لحمد ، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات .

## الإيضاح

( وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوّوا رؤوسهم ورأيتهم يصدّون وهم مستكبرون ) أى وإذا قيل للجماعة المنافقين كمبّد الله بن أبى : هلموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب لكم من ربكم غفران ذنوبكم ، صدّوا وأعرضوا ، استكباراً وعتوّاً !

قال الكلبي : لما نزل القرآن بصفة المنافقين مشى إليهم عشائرهم من المؤمنين وقالوا لهم : ويلكم افتضحتم بالنفاق ، وأهلكتم أنفسكم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوبوا إليه من النفاق : واسألوه أن يغفر لكم ، فأبوا ذلك وزهدوا فى الاستغفار فنزلت الآية :

وقال ابن عباس : لما رجع عبد الله بن أبى من أخذ بكثير من الناس مقتته المسلمون وعنفوه وأسمعوه ما يكره ؛ فقال له بنو أبيه : لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يستغفر لك ويرضى عنك ، قال : لا أذهب إليه ولا أريد أن يستغفر لى ، وجعل يلوئى رأسه فنزلت :

ثم أيأسهم من جدوى الاستغفار لهم فقال :

( سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، إن يغفر الله لهم ) أى الاستغفار لهم وعدمه سيمان لا يجديانهم نفعاً ، لأن الله قد كتب عليهم الشقاء بما كسبت أيديهم ، وبما اجترحت من الفسوق والآثام ، وبما ران على قلوبهم من الجحود والطغيان ؛ ثم علل ذلك بقوله :

( إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ) أى إن الله لا يهدي من أحاطت به خطيئته فلم تجد الهداية إلى قلبه سبيلا تسلكه ، ولا المواعظ والنصائح متسماً فى فؤاده ،

فَأَنَّى لِلْقَلْبِ أَنْ يَهْتَدِيَ ، وَلِلْعَقْلِ أَنْ يَرَعَى ، وَمَاذَا تَفِيدُ الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يَعْقِلُونَ ؟  
ثم ذكر هنة أخرى لهم فقال :

( هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ) أى هم الذين  
يقولون للأَنْصار : لا تطعموا محمداً وأصحابه حتى تصيبهم مجاعة ، فيتركوا نبيهم حين  
يعضهم الجوع بنابه .

ثم رد عليهم وخطأهم فيما يقولون فقال :  
( والله خزائن السموات والأرض ) أى والله جميع ما فى السموات والأرض من  
شئ ، وبيده مفاتيح أرزاق العباد ، لا يقدر أحد أن يعطى أحداً شيئاً إلا بمشيئته .  
( ولكن المنافقين لا يفقهون ) ذلك ، لجهلهم بسنن الله فى خلقه ، وأن الله قد  
كفل الأرزاق لعباده فى أى مكان كانوا متى عملوا وجدوا فى الحصول عليها .

ثم ذكر هنة ثالثة لهم وهى أعظمها فقال :  
( يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ) أى يقول عبد الله  
ابن أُبَيٍّ ومن يلؤذ به من صحبه : لئن عدنا إلى المدينة لنخرجنكم منها أيها المؤمنون  
فإننا الأقوياء الأشداء الأعزاء ، وأنتم الضعفاء الأذلاء .  
ثم رد عليهم مقابلهم فقال :

( والله العزة لرسوله وللمؤمنين ) أى والله الغلبة والقوة ، ومن أعزه الله من  
الرسول والمؤمنين .

روى « أن عبد الله بن عبد الله بن أُبَيٍّ ، وكان مؤمناً مخلصاً ، سل سيفه على  
أبيه عند ما أشرفوا على المدينة وقال : لله على ألا أعمدته حتى تقول : محمد الأعز  
وأنا الأذل ، فلم يهرح حتى قال ذلك » .

وروى « أنه وقف واستل سيفه وجعل الناس يميرون عليه حتى جاء أبوه فقال :  
وراءك ، قال مالك ويملك ؟ قال والله : لا تجوز من هنا حتى يأذن لك رسول الله

صلى الله عليه وسلم فإنه العزيز وأنت الدليل ، فرجع حتى لقي رسول الله ، وكان إنما يسير ساقية ( في آخر الجيش ) ، فشكا إليه ما صنع ابنه ، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم أن خلّ عنه يدخل ففعل .

(ولكن المنافقين لا يعلمون) أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن العاقبة للمتقين ، وأن الله ينصر من ينصره كما قال « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وسننه تعالى لا تبدل فيها ولا تغيير ، وهو لا يد جاعل عباده المؤمنين هم الأعداء كما وعد ، وجاعل مخالفيه هم الأذلاء .

ولادخل للمال والنشب ، ولا للحسب والنسب ، في تلك القوة التي يُمد بها من يشاء ، والنصرة التي يمنحها عباده المخلصين ، وإن الله منجز وعده لنبيه ، كما أنجزه لمن قبله من رسله ، وقد تم لهم الظفر على أعدائهم الضالين .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ، فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١) .

### شرح المفردات

لا تلهكم : أى لا تشغلكم ، وذكر الله : العبادات المذكورة به ، والمال والأولاد يراد بها زخرف الدنيا ، الخاسرون في تجارتهم : إذ ياعوا العظيم بالحقير ، لولا : كلمة تفيد تمنى حصول ما بعدها .

## المعنى الجملى

بعد أن حكى مقال المنافقين من أنهم الأعزاء ، وأن المؤمنين هم الأذلاء ، اغترارا بما لهم من مال ونشب ، وأن ذلك هو الذى صدهم عن طاعة الله ، وجعلهم يعرضون عن الإيمان بالله إيماناً حقاً ، ويؤدون فرائضه ، ويقومون بما يقربهم من رضوانه ؛ أردف ذلك بنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم فى ذلك ، بل عليهم أن يلهمجوا بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويؤدوا ما فرض عليهم من العبادات ، ولا يشغهم عن ذلك زخرف هذه الحياة من مال ونشب وأولاد وجاه ، فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ؛ ثم أمرهم أن ينفقوا أموالهم فى أعمال البر والخير ولا يؤخروا ذلك حتى يحل الموت فيندموا حيث لا ينفع الندم ، ويتمنوا أن يطيل الله أعمارهم ليعوضوا بعض ما فاتهم ، ولكن أتى لهم ذلك ؛ ولكل نفس أجل محدود لا تعدوه ، والله خبير بما يعملون ، وهو مجازيهم على أعمالهم ، إن خيراً ، وإن شراً .

## الايضاح

أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ( أى لا يشغلكم تدبير أموالكم ، والعناية بشؤون أولادكم ، عن القيام بحقوق ربكم ، وأداء فرائضه التى طلبها منك ، واجعلوا لندنيا حظاً من اهتمامكم ، وللآخرة مثله ، وهذا ما عناه الحديث : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » .

وبهذا امتازت الملة الخنيفية السمجة ، فما طالب من المؤمنين أن يكونوا ماديين يتكاثرون على جمع حطام الدنيا كما يفعل اليهود ، ولا أن يكونوا روحانيين يجردون أنفسهم من لذات هذه الحياة ، ويتبتلون إلى ربهم كما يفعل المسيحيون ، كما يرشد إلى هذا قوله تعالى : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

الرِّزْقِ» وقوله : « يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا » .

ثم تواعد من يفعل ذلك فقال :

(ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) أى ومن تلهّ بالدنيا وشغلته عن حقوق الله فقد باء بغضب من ربه ، وخسرت تجارتها ، إذ باع خالداً باقياً ، واشترى فانياً زائلاً ؛ وكيف يرضى عاقل بمثل هذه التجارة الخاسرة ؟

ومن أهم ما يقرب العبد من ربه ، ويجعله يفوز برضوانه — رحمة البائسين من عباده ، وبذل المال في الوجوه التي فيها سعادة الأمة ، وإعلاء شأن الملة ، وانتشار الدعوة ، ومن ثم قال :

(وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين) أى وأنفقوا بعض ما أعطيناكم من فضلنا من الأموال ، شكراً على النعمة ، ورحمة بالفقراء من عباده ، وادخروا ذلك ليوم العرض والحساب ، فتجنوا ثمار ما علمتم ، ولا تدخروه في صناديقكم ، وتدعوه لوارثكم ، فربما أضاعه في لا يكسبكم حداً ولا مدحاً ، بل يكسبكم ذماً وقدحاً . وقد جاء في الخبر : « أطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام » وجاء أيضاً : « يابن آدم ليس لك من مالك إلا ما لبست فألبيت ، أو أكلت فأفانيت ، أو تصدقت فأبقيت » .

ولا تنتظروا حتى يحين وقت الاحتضار ، وتروا الموت رأى العين ، ثم تمنون أن لو مدّ الله في الأجل ، وأطال العمر ، لتتداركوا مافات ، وتحسنوا العمل ، وتساعدوا البائسين وذوى الحاجة ، فهيهات هيهات ، فليس ذا وقت الندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

فأتى للعمر أن يطول ، وللحياة أن تزيد ؟ ولكل نفس أجل لا تعدوه ، وعمر

لا يزيد ولا ينقص ؛ فإذا يفيد التمتي ، وماذا ينفع الندم والحسرة ؟ وذلك ما عناه  
سبحانه بقوله :

( ولئن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ) فليكن أن تستعدوا قبل حلول الأجل ،  
وتهيئوا الزاد ليوم المعاد « فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . وَأَمَّا  
مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةٌ . نَارٌ حَامِيَةٌ » .

وفي هذا عبرة لمن اعتبر ، ولم يفرط في أداء الحقوق والواجبات .  
ثم حذرهم وأنذرهم بأنه رقيب عليهم في كل ما يأتون وما يذرون فقال :  
( والله خبير بما تعملون ) فجازيكم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة إعراضاً  
عنه وسخطاً ، وبعداً عن رضوانه : إنك لا تجني من الشوك العنب .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله .

### تضمنت هذه السورة شيئين

- (١) وصف المنافقين وبيان سبب خصالهم من الكذب والأيمان الفاجرة والجبن .
- (٢) حث المؤمنين على الطاعة وإففاق المال قبل انقضاء الأجل .

## سورة التغابن

هي مدنية ، وآياتها ثمانى عشرة ، نزلت بعد التحريم .  
ومناسبتها لما قبلها :

(١) إنه في السورة قبها ذكر حال المنافقين ، وخاطب بعد ذلك المؤمنين ،  
وهنا قسم الناس قسمين مؤمن وكافر .

(٢) نهى هناك عن الاشتغال بالأولاد عن ذكر الله ، وهنا ذكر أن الأموال  
والأولاد فتنة .

(٣) في السورة السابقة حث على الإنفاق في سبيل الله ، وفي ذكر التغابن  
حث عليه أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ  
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ  
مُؤْمِنٌ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ  
وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) .

## الايضاح

(يسبح لله ما في السموات وما في الأرض) أى إن وجود ما في السموات والأرض  
دالٌّ على تنزيه الله وكماله ، وإن هذه المخلوقات مسخرة منقادة له .

(له الملك وله الحمد) فهو المتصرف في جميع الكائنات ، المحمود على جميع ما يخلق  
و يقدر ، لأنه مصدر الخيرات ، ومفيض البركات .

(وهو على كل شىء قدير) فما أراد كان لا ممانع ولا مدافع ، وما لم يشأ لم يكن .  
ثم ذكر بعض مقدوراته تعالى فقال :  
(هو الذى خلقكم) أى هو الذى أوجدكم كما شاء على ما شاء .

ثم قسم هذا الخلق فقال :

(فمنكم كافر ، ومنكم مؤمن) أى فبعضكم مختار للكفر كاسب له على خلاف  
ما تقتضيه فطرته ، وبعضكم مختار للإيمان كاسب له بحسب ما تدعو إليه الفطرة كما  
جاء فى الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه  
أو يمجسانه » وقد كانت الأدلة الكونية فى الأنفس والآفاق كقيلة أن تردكم إلى  
الحق ، فتختاروا الإيمان شاكرين لنعمة الخلق والإيجاد وما يتبعهما من سائر النعم ،  
ولكنكم ما فعلتم ذلك ، بل تفرقتم شيعا ، وجحدتم الخالق ، وكفرتم بأنعمه عليكم ،  
بعد أن أفصح الصبح لذى عينين .

(والله بما تعملون بصير) أى وهو البصير بمن هو مستعد للهداية اصفاء نفسه ،  
وزكاء روحه ، فيعطيه ما هو له أهل ؛ ومن خبثت طويته ، وفسدت سجيته ، ودس  
نفسه بكمائر الذنوب والآثام ، وسيجزى بما هو به حقيق من العذاب الأليم فى جهنم  
« إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

وبعد أن ذكر نعمة خلق الإنسان ذكر النعمة الشاملة بخلق العالم كله على أتم  
ما يكون من الحكمة والعدل فقال :

(خلق السموات والأرض بالحق) أى بالحكمة البالغة المتضمنة لمنافع الدين والدنيا  
(وصوركم فأحسن صوركم) حيث أودع فيكم القوى ، والمشاعر الظاهرة والباطنة  
وجعلكم صفوة جميع مخلوقاته ، وخصكم بخلاصة خصائص مبدعاته ؛ فالإنسان يضم  
روحاً هو من عالم الأرواح ، وبدناً هو من عالم الأشباح ، وأنشدوا :

وَتَزْعُمُ أَنَّكَ جِرْمٌ صَغِيرٌ وَفِيكَ انْطَوَى الْعَالَمُ الْأَكْبَرُ

(وإليه المصير) في الحياة الآخرة ، وهو الذى يجازى كل نفس بما كسبت ،  
لامعقب لحكمه وهو سريع الحساب ، فاصرفوا ما خلق لكم فى شكره ، والوفاء بحق  
نعمه المتظاهرة عليكم ، ظاهرة وباطنة .

(يعلم ما فى السموات والأرض) فلا تخفى عليه خافية من أمرها ، وهو يدبرها  
بحسب علمه الواسع ، وقدرته الشاملة « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ  
كُنْ فَيَكُونُ » .

ثم خص بعض ما يعمله ، عناية بأمره ، إذ عليه الثواب والعقاب فقال :  
(ويعلم ما تسرون وما تعلنون) فاجعلوا أعمالكم ظاهرها وباطنها وفق ما يطلبه  
منكم الدين ، لتتدالوا الفوز برضوان الله وجميل مثوبته .  
ثم علل هذا بقوله :

(والله عليم بذات الصدور) أى لأنه تعالى محيط بجميع ما أضمره المرء فى صدره ،  
واستكن فى قلبه ، فلا يخفى عليه ما أسر وما يعلن .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَعَالُوا  
أَبْشَرُ يَهْدُونَنَا؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَفْتَنَى اللَّهُ، وَاللَّهُ غَنِيٌ حَمِيدٌ (٦) .

### شرح المفردات

أَلَمْ يَأْتِكُمْ : هذا الاستفهام للتعجب من حالهم ، والنبا : الخبر الهام ؛ وأصل  
الوبال : الثقل والشدة المترتبة على أمر من الأمور ، ومنه الطعام الويل أى الثقيل على  
المعدة ، والوابل : المطر الثقيل القطر ، ثم استعمل فى الضر لأنه يثقل على الإنسان

والأمر: الكفر وعبر به للإيذان بأنه جناية عظيمة وأمر هائل، والبيئات: المعجزات، وتولوا: أعرضوا، واستغنى الله: أى أظهر غناه عنهم: إذ أهلكهم وقطع دابرهم.

## المعنى الجملى

بعد أن بسط سبحانه الأدلة على عظيم قدرته وواسع علمه، وأنه خلق السموات والأرض، وأنه صورهم فأحسن صورهم، وأنه يعلم السر والنجوى — حذر المشركين من كفار مكة على تماديهم في الكفر، والجلود بآياته، وإنكار رسالة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم؛ وبين لهم عاقبة ما يحل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة؛ وضرب لهم الأمثال بالأمم المكذبة من قبلهم، فقد كذبوا رسلهم، وتمادوا في عنادهم، وقالوا: أيرسل الله من البشر رسلا؟ فخلت بهم نعمة ربهم؛ وأخذهم أخذ عزيز مقتدر؛ فأصبحت ديارهم خرابا يبابا، كأن لم يغنوا بالأمس، فهلا يكون ذلك عبرة لهم؛ فيثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم لو كانوا من أرباب النهى.

## الإيضاح

(ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) أى ألم يبلغكم أيها المشركون من أهل مكة نبي الذين كفروا بالرسول من قبلكم كقوم نوح وهود وصالح وغيرهم من الأمم التي أصرّت على الكفر والعناد، كيف حل بهم عقاب ربهم، وعظيم نعمته؛ وأرسل عليهم ألواناً من العذاب لا قبل لهم بها؛ فمن صاعقة من السماء تجتاحهم، إلى رجفة في الأرض تهلكهم، إلى صيحة تصم الآذان تبدهم وتجعلهم كأمس الدابر، وتمحوهم من صفحة الوجود، إلى طوفان يعم الأرض ويبتلعهم؛ فحاق بهم ما كانوا به يستهزئون؛ وسيكون لهم عظيم النكال والوبال يوم تُجزى كل نفس بما كسبت، إن الله سريع الحساب.

وفي هذا الأسلوب تعجيب من حالهم ، وأنه قد كان لهم في ذلك مدّكر ،  
لو كانوا يستبصرون ، وعبرة لو كانوا يعتبرون .

ثم بين أسباب ما حل بهم من النعمة فقال :

(ذلك بأنه كانت تأتيهم رسالهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا ؟ فكفروا وتولوا  
واستغنى الله ، والله غنى حميد) أى إن ما حل بهم من سوء العذاب كان من جراء  
تكذيبهم بالرسول بعد أن جاءوهم بالأدلة الواضحة ، والمعجزات الباهرة؛ وقالوا: إن من  
العجب العاجب أن يكون هذبنا على يدى بشر منا لاميزة لهم عنا بعقل راجح ،  
ولا بسلطان يتلصكون به قيادنا ، ويجعل لهم بسطة النفوذ علينا ، كما قالت ثمود :  
« أَبْشَرْنَا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقد جهلوا أن النبوة رسالة يصطفى بها الله من يشاء  
من عباده كما قال : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

وبعد أن طال عنادهم وتمادوا في غيهم أهلكهم الله بسلطانه وجبروته ، وقطع  
دابرهم ، واستغنى عن إيمانهم ، وهو الغنى عن العالمين جميعا ، والغنى عن إيمانهم  
وطاعتهم ، وهو الحقيق بالحمد على ما أنعم به على عباده من النعم المتظاهرة عليهم ،  
ظاهرة وباطنة .

زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ  
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ  
وَالنُّورِ الَّذِي أُنْزِلَنَا ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ  
الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ  
عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا  
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ  
النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبُئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) .

## شرح المفردات

زعم فلان كذا : أى ادعى علمه بخصوله ، وأكثر ما يستعمل للدعاء الباطل ، بلى : كلمة للجواب تقع بعد النفي لإثبات ما بعده كما وقع فى الآية ، لتبعثن : أى لتحاسبنَّ وتجزؤنَّ بأعمالكم ، والنور : هو القرآن : وسمى بذلك لأنه بين فى نفسه مبيِّن لغيره ، والخمير : هو العلم ببواطن الأشياء ، يوم الجمع : هو يوم القيامة ؛ سُمى بذلك لأن الله يجمع فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ، والتغابن ، من قولهم : تغابن القوم فى التجارة : إذا غبن بعضهم بعضا كأن يبيع أحدهم الشيء بأقل من قيمته ، فهذا غبن للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، وهذا غبن للمشتري .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف إنكار المشركين للألوهية ، ثم إنكارهم للنبوة بقولهم : « أَبَشِّرْهُمْ بِهَذَا وَنَعْمَ ؟ » ثم أعقبه بأنهم سيلقون الوبال والنكال جزاء ما فعلوا . أردف ذلك بذكر إنكارهم للبعث ، ثم يثبت تحققه وأنه كائن لا محالة ، وأن كل امرئ سيجازى بما فعل يوم يجمع الله الأولين والآخرين فى صعيد واحد حين يغبن الكفار فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، ويفوز المؤمنون فى تجارتهم بالصفقة الرائجة ، لأن الله اشترى منهم أموالهم وأنفسهم بالجنة فضلا منه ورحمة .

## الإيضاح

( زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا ) أى ادعى المشركون أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء فقالوا : « أَأَنْذَاكُمْ تَرَأَبَا أَتُنَآ لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » وقالوا : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ » . .

فَأَمْرُ رَسُولِهِ بِالرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَإِبْطَالُ زَعْمِهِمْ بِقَوْلِهِ :

(قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَتَّبِعَنِّي لَمْ تَلْنَبِئُونِي بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) أَيْ قُلْ لَهُمْ :  
إِنَّ الْبَعْثَ كَأَنَّ لَاحِقَالَهُ ، وَإِنَّكُمْ وَرَبِّي الَّذِي بَرَأَ الْخَلْقَ وَأَنْشَأَهُمْ مِنَ الْعَدَمِ سَتَحَاسِبُنِّي  
عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ وَتَجْزُونَ عَلَى الْكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ ، وَالنَّقِيرِ وَالْقَطْمِيرِ ، وَذَلِكَ هِينًا  
عَلَيْهِ يَسِيرٌ .

وَمَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ  
عَلِيمٌ » وَقَوْلُهُ : « وَيَسْتَنْمِئُ وَنَتَكَ أَحَقُّ هُوَ ؟ قُلْ إِيَّاي وَرَبِّي إِنَّهُ يَخْلُقُ وَمَا أَنْتُمْ  
بِمُعْجِزِينَ » وَقَوْلُهُ : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي  
لَتَأْتِيََنَّكُمْ » الْآيَةُ .

وَبَعْدَ أَنْ أَبَانَ لَهُمْ أَدْلَةُ التَّوْحِيدِ وَالزُّبُورَةِ بِمَا لَا يَجَالُ مَعَهُ الْإِنْكَارُ — طَالِبُهُمْ  
بِالْإِيمَانِ بِهِمَا فَقَالَ :

(فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أُنْزِلَنَا) أَيْ فَصَدَّقُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ الْهَادِي  
لَكُمْ إِلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ إِذَا تَرَأْتُمْ ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ ، وَالْمُنْقَذَ لَكُمْ مِنَ الضَّلَالَةِ إِذَا  
أَحَاطَتْ بِكُمْ الْخَطِئَاتُ .

ثُمَّ تَوَعَّدَهُمْ عَلَى مَا يَأْتُونَ وَمَا يَذَرُونَ فَقَالَ :

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَعْمَالُكُمْ ، وَسَيَحَاسِبُكُمْ عَلَى مَا كَسَبْتُمْ  
أَيْدِيَكُمْ مِنْ خَيْرٍ أَوْ أَكْدَسْتُمْ مِنْ شَرٍّ ، فَرَأَوْهُ وَخَافُوا شَدِيدَ عِقَابِهِ .

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ) أَيْ وَتَذَكَّرُوا يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ  
لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، يَسْمَعُهُمُ الدَّاعِي وَيُنْفِذُهُمُ الْبَصَرُ ، لَتَجْزَى كُلُّ  
نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

وَمَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ »  
وَقَوْلُهُ : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ » .

(ذلك يوم التغابن) فالكافرون قد اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخرست صفقتهم ولم يرجحوا فيها ، والمؤمنون باعوا أنفسهم بالجنة فربحت صفقتهم وما كانوا خاسرين ، وفى الصحيح « ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِىَ مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا ، وما من عبد يدخل النار إلا أُرِىَ مقعده من الجنة ، ليزداد حسرة » .

والخلاصة — إنه لا غبن أعظم من أن قوما ينعمون ، وقوما يعذبون ، وأن قوما مغبونين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غابنين لمن غبنوهم فيها .

ثم بين هذا التغابن وفصله بقوله :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) أى ومن يصدق بالله ويعمل بطاعته وينتهى إلى أمره ونهيهِ — يمح عنه ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحت أشجارها الأنهار لا بشين فيها أبدا لا يموتون ولا يخرجون منها ، وذلك هو الفوز الذى لا فوز بعده ، لانطوائه على النجاة من أعظم الممالك ، وأجل المخاطر .

(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) أى والذين جحدوا وحدانية الله وكذبوا بأدلتها وآى كتابه الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم أولئك أصحاب النار خالدين فيها أبدا ، وبئس النار مصيرا لهم .

مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ  
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ  
فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ  
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) .

## شرح المفردات

المصيبة : ما ينال الإنسان ويصيبه من خير أو شر ، بإذن الله : أى بقدرته ومشيئته ، يهد قلبه : أى يشرحه لازدياد الخير والطاعة .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن الناس قسمان : كافر بالله مكذب لرسوله لا يألوا جهدا في إيصال الأذى بهم ، ومؤمن بالله مصدق لرسوله وهو يعمل الصالحات - أردف ذلك ببيان أن ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره بحسب النظم التي وضعها في الكون ، فعلى الإنسان أن يجتهد ويعمل ، ثم لا يبالى بعد ذلك بما يأتي به القضاء ، لعلمه بأن ما فوق ذلك ليس في طاقته ، ولن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، ثم أمر بعد ذلك بطاعة الله وطاعة الرسول ، وأبان أن تولي الكافرين عن الرسول لن يضره شيئا ، فإنه قد أدى رسالته .

وما على الرسول إلا البلاغ ، وأن على المؤمن أن يتوكل على الله وحده ، وهو يكفيه شر ما أهمه .

## الإيضاح

١ ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ( أى ما أصاب أحدا من خيرات الدنيا ولذاتها أو رزاياها وشرورها - فهو بقضاء الله وقدره بحسب ما وضع من السنن في نظم الكون ، فعلى المرء أن يعمل ويجتهد ويسعى لجلب الخير ودفع الضر عن نفسه أو عن غيره ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ثم هو لا يحزن ولا يفتن لما يصيبه بعد ذلك ، لأنه قد فعل ما هو في طاقته وما هو داخل في مقدوره ، وما بعد ذلك فليس له من أمره شيء .

والخلاصة — إن على المؤمن واجبين :

- (١) السعى وبذل الجهد فى جلب الخير ودفع الضرر ما استطاع إلى ذلك سبيلا.
- (٢) التوكل على الله بعد ذلك ، اعتقادا منه أن كل شىء يحدث فإنما هو بقضائه وقدره ، فلا يغم ولا يحزن لدى حلول الشر ، ولا يتهاذى فى السرور عند مجىء الخير .

ثم بين أن الإيمان يضىء القلب ، ويشرح الصدر لخير العمل فقال :

(ومن يؤمن بالله يهد قلبه ) ويشرح صدره ، لازدياد الخير والمضى قُدُما فى طاعة الله ، وأى نعمة أعظم من هذه النعمة ؟ جدُّ فى عمل الخير ، واستراحة لدى النعم والحزن ، واطمئنان للنفس ، ووثوق بفضل الله .

( والله بكل شىء عليم ) أى والله عليم بالأشياء كلها ، فهو عليم بالقلوب وأحوالها ومطلع على سرها ونجواها ، فاحذروه وراقبوه فى السر والعلن ، كما جاء فى الأثر « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

( وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ) أى وأطيعوا الله فيما شرع ، وأطيعوا رسوله فيما بلغ ، وافعلوا ما به أمر ، واتركوا ما عنه نهى وزجر ، فإن أعرضتم عن ذلك فإنما عليه أداء ما حُل من الرسالة ، وعديكم ما حلت من السمع والطاعة ، وما قد أدى ما عليه ، ولا يكلف شيئا بعد ذلك .

( الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون ) أى وحدوا الله وأخلصوا له العمل وتوكلوا عليه ، ونحو الآية قوله : « رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا » .

وفى هذا إيماء إلى أن المؤمن لا يعتمد إلا عليه ، ولا يتقوى إلا به ، لأنه يعتقد أنه لا قادر فى الحقيقة إلا هو ، وفيه حث لرسوله صلى الله عليه وسلم على التوكل

عليه ، والتقوى به في أمره حتى ينصره على من كذبه وتولى عنه ، وكأنها تشير إلى أن من لا يتوكل عليه فليس بمؤمن ، وهي كالخاتمة والفضلكة لما تقدم .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ، وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) .

### شرح المفردات

فتنة : أى بلاء ومحنة ، ومن يوق : أى من يحفظ نفسه ، والشح : البخل مع الحرص ، والقرض الحسن : هو التصدق من الحلال ، هو التصدق بإخلاص وطيب نفس

### المعنى الجملى

بعد أن أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ، وذكر أن المؤمن ينبغي أن يتوكل على الله تعالى ولا يعتمد إلا عليه — ذكر هنا أن من الأولاد والزوجات أعداء لأبائهم وأزواجهم يثبطونهم عن الطاعة ، ويصدونهم عن تلبية الدعوة لما فيه رفعة شأن الدين وإعلاء كلمته ، فعليكم أن تحذروهم ولا تتبعوا أهواءهم حتى لا تكونوا إخوان

الشياطين يزينون لكم المعاصى ويصدونكم عن الطاعة ؛ ثم أردف هذا ببيان أن الإنسان مفتون بماله وولده ، فإنه ربما عصى الله تعالى بسببهما ، فغصب المال أو غيره لأجلهما ، فعليه أن يتقى الله ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولينفق ذو سعة من سعته ، فمن جاد بماله ووقى نفسه الشح فهو الفائز بخير الدنيا والآخرة ، ومن أقرض الله قرضاً حسناً فالله يضاعف له الحسنة بعشرة أضعافها إلى سبعمائة ضعف ، وهو عالم بما يغيب عن الإنسان وما يشهد ، وهو العزيز الحكيم فى تدبير شئون عباده .

أخرج الترمذى والحاكم وابن جرير وغيرهم عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ » فى قوم من أهل مكة أساءوا وأرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوه ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأوا الناس قد فقهوا فى الدين هموا أن يعاقبهم فأنزل الله : « وَإِنْ تَعْمُوا وَتَدْفَعُوا وَتَغْفِرُوا » الآية . وفى رواية عنه أنه قال : كان الرجل يريد الهجرة فتحبسه امرأته فيقول : أما والله لئن جمع الله بينى وبينكم فى دار الهجرة لأفعلن ولأفعلن ، فجمع الله بينهم فى دار الهجرة فأنزل الله الآية .

## الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله : إن من أزواجكم وأولادكم أعداء لكم يحولون بينكم وبين الطاعات التى تقر بكم من ربكم ، والأعمال الصالحة التى تنفعكم فى آخرتكم ، وربما حملكم على السعى فى اكتساب الحرام ، واكتساب الآثام لمنفعة أنفسهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يأتى زمان على أمتى يكون فيه هلاك الرجل على يد زوجته وولده . يعيرنه بالفقر ، فيركب راكب السوء فيهلك » .  
ومن الناس من يحملهم حبهم واشفقتهم عليهم ، فيكونوا فى عبس رغد فى حياته



( فأتقوا الله ما استطعتم ) أى ابدلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وما نهيتكم عنه فاجتنبوه » .

ونحو هذا ما جاء فى قوله : « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » ( واسمعوا وأطيعوا ) أى كونوا متقادين لما يأمركم الله ورسوله به ، ولا تحيدوا عنه يَمَنَةً ولا يَسْرَةً ، ولا ترتكبوا ما نهيتكم عنه .

( وأنفقوا خيراً لأنفسكم ) أى وابدلوا مما رزقكم الله على الفقراء والمساكين وذوى الحاجات . وفى الوجوه التى يكون فيها صلاح الأمة والملة ، وسعادة الدين والدنيا ، وذلك خير لأنفسكم من الأموال ولأولاد ؛ وهذا حث على البذل ، وبيان أن الامتثال خير لا محالة .

ثم زاد فى الحث على الإنفاق فقال :

( ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ) أى ومن يبتعد عن البخل والحرص على المال — يكن من الفائزين بكل ما يرجو ، ونيل كل ما يبغي فى دينه ودنياه ، فيكون محبوباً إلى الناس ، قرير العين برضاهم عنه وحنوهم عليه ، سعيداً فى الآخرة بالقرب من ربه ومحبه ورضوانه ودخول جناته .

ثم بالغ فى الحث على الإنفاق أيضاً فقال :

( إن تنرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ) أى إن أنفقوا فى طاعة الله ، منقرضين إليه بإخلاص وطيب نفس — يضاعف لكم ذلك ، الحسنه بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، ويستركم ما فرط من زلاتكم ؛ جاء فى الصحيحين : « إن الله يقول : من يقرض غير ظنوم ولا عديم ؟ »

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله : استقرضت عبدى فأبى أن يقرضنى ، ويشتمنى عبدى وهو لا يدري ، يقول وادهراه وادهراه « وأنا الدهر ثم تلا أبو هريرة هذه الآية « أخرجه ابن جرير والحاكم وصححه .

ونحو الآية ماجاء في سورة البقرة : « فَيَضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً » .

ثم بين علة المضاعفة ورغب في النفقة فقال :

( والله شكور حلیم ) فيثيب من أطاعه بأضعاف مضاعفة ، ولا يعاجل من عصاه بعقوبته على كثرة الذنوب والخطايا .

ثم ذكر ما يزيد في الترغيب في النفقة أيضا فقال :

( عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ) أى هو العليم بما غاب عنكم وبما تشهدونه ، فكل ماتعملون فهو محفوظ لديه في أم الكتاب ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، وسيثيبكم عليه ويجازيكم به أحسن الجزاء ؛ وهو ذو العزة والقدرة ، النافذ الإرادة الحكيم في تدبير خلقه على ما يعلم من المصلحة .

### خلاصة ماحوته السورة

- (١) صفات الله الحسنى .
- (٢) إنذار المشركين بذكر ما حلّ بمن قبلهم من الأمم مع بيان السبب فيما نالهم من ذلك .
- (٣) إنكار المشركين للبعث .
- (٤) بيان أن ما يحدث في الكون فهو بأمر الله وتقديره .
- (٥) تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه لا يضره إصرارهم على الكفر .
- (٦) إن من الأزواج والأولاد أعداء للمرء .
- (٧) الأموال ولأولاد فتنة وابتلاء .
- (٨) الحث على التقوى والإنفاق في سبيل الله .

## سورة الطلاق

هي مدنية ، وآيها ثلثا عشرة ، نزلت بعد سورة الإنسان .  
ومناسبتها لما قبلها - أنه قال في السورة السابقة : « إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ  
وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ » وكانت هذه العداوة قد تفضى إلى الطلاق - أرشد هنا  
إلى أحكام الطلاق والانفصال عن الأزواج على أجمل وجه . فقال :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ،  
وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ، لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ  
بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ، وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ،  
لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (١) .

## شرح المفردات

طلَّقتُ النساء : أى أردتُ طلاقهن كما جاء في قوله تعالى : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ  
فَأَسْمَعْ عَذْلَ اللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أى إذا أردت قراءته ، لعدتَّهن : أى مستقبليهن  
عدتهن بأن تطلقوهن في طهر لا قربان فيه ، وأحصوا العدة : أى اضبطوها وأكلوها  
ثلاثة قروء كوامل ، وأصل الإحصاء العدّ بالخصى كما كان يستعمل ذلك قديما  
ثم استعمل في العدّ والضبط ، والفاحشة المبينة : هى ارتكاب ما يوجب الحد ،  
أو البذاء على الأحماء أو على الزوج ، أو الخروج قبل انقضاء العدة ، وحدود الله :  
شرائعه انى أمر بها ونهى عن تركها ، ظلم نفسه : أى أضرب بها ، والأمر : هو الندم  
على طلاقها والميل إلى رجعتها .

## المعنى الجملى

أمر الله المؤمنين أن يطلقوا نساءهم في الطهر الذي يحسب لهن من عدتهن ، وهو الطهر الذي لا وقاع فيه ، ولا يطلقوهن في حيض لا يعتد به من قروهن ، كما أمرهم بضبط العدة وحفظها ، والخوف من تعدى حدود الله ، وعدم إخراجهن من مساكنهن التي كنَّ فيها قبل الطلاق حتى تنتهى عدتهن إلا أن يأتين بمعصية ظاهرة كالبدء على الأحماء والأزواج أو الخروج من الدار قبل انقضاء العدة ، ومن يتعد هذه الحدود فقد ظلم نفسه وارتكب ما يضرها ويجعلها تندم على ما فعلت ، ثم أبان حكمة الإبقاء في البيوت ، وهي سهولة مراجعتها لميل القلب إليها وتحولها من بغض إلى محبة .

## الإيضاح

( يأيتها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ) أى أيها المؤمنون إذا أردتم طلاق نساءكم فطلقوهن لزمان محسوب من عدتهن ، وهو طهر لا قربان فيه حتى لا يطول عليهن زمان العدة ، فإن طلقتموهن في زمان الحيض كان الطلاق طلاقاً بدعياً حراماً ، والمراد بالنساء المدخول بهن من ذوات الأفرأء ، أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهن ، وذوات الأشهر سيأتى حكمهن فيما بعد .

أخرج الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى فى آخرين عن ابن عمر « أنه طلق امرأته وهى حائض ، فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيط منه ثم قال : ليراجعها ثم يسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، فإن بدا به أن يطلقها فليطلقها قبل أن يسهما ، فذلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء » .

وحص النبي صلى الله عليه وسلم بالنداء وعم بالخطاب لأن النبي إمام أمته وقدوتهم : كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم : يا فلان افعلوا كيت وكيت ، قاله فى الكشف .

والخلاصة — إن السنة فى الطلاق أن تطلق المرأة وهى طاهرة دون أن يكون قد لامسها فى هذا الطهر ، أو أن يطلقها وهى حامل حملا مستبينا ، ومن هذا قسم الفقهاء الطلاق أقساما ثلاثة :

(١) طلاق سنة ، وهو أن يطلقها طاهرة من غير قربان ، أو حاملا حملا قد استبان .

(٢) طلاق بدعة وهو أن يطلقها حين الحيض أو فى طهر قد واقعها فيه ، فلا يدرى أحلت أم لا ، والسرى فى هذا أنه بعمله هذا أطال عليها العدة ، لأن هذه الحيضة لا تحسب فى العدة ، وكذا الطهر الذى بعدها ، لأنها إنما تكون بثلاث حيضات كوامل .

(٣) طلاق لاهو بسنة ولا بدعة ، وهو طلاق الصغيرة والأيسة وغير المدخول بها . وقد روى عن ابراهيم النخعى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنة إلا واحدة ، ثم لا يطلقون غير ذلك حتى تنقضى العدة ، وما كان أخسّ عندهم من أن يطلق الرجل ثلاث تطليقات . وقال مالك ابن أنس : لا أعرف طلاقا إلا واحدة . وكان يكره الثلاث متفرقة أو مجمعة . وأبو حنيفة وأصحابه يكرهون ما زاد على الواحدة فى طهر واحد . وعند الشافعى لا بأس بإرسال الثلاث وقال : لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة بل هو مباح .  
والخلاصة — أن مالكاً يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت ، وأن أبا حنيفة يراعى التفريق والوقت ، والشافعى يراعى الوقت وحده .

(وأحصوا العدة) أى واحفظوها واعرفوا ابتداءها وانتهاءها ، لئلا تطول على المرأة ، واحفظوا الأحكام والحقوق التى تجب فيها .  
وإنما خوطب الأزواج بذلك دون النساء ، لأنهم هم الذين تلزمهم الحقوق والمؤن المرتبة عليه .

( واتقوا الله ربكم ) أى واخشوا الله ربكم ، فلا تعصوه فيما أمركم به من الطلاق لعديتهن ، وفى القيام بما للمعتدات من حقوق .

وفى وصفه تعالى بالربوبية مبالغة فى وجوب الامتثال لأمره ، لما فى لفظ الرب من التربة التى هى الإنعام والإكرام على ضروب لاحصر لها .

ثم بين بعض هذه الحقوق فقال :

( لا تخرجوهن من بيوتهن ) أى لا تخرجوا المعتدات من المساكن التى كنتم تسكنون فيها قبل الطلاق ، غضبا عليهن أو كراهة لمساكنتهن أو لحاجة لكم إلى المساكن ، لأن تلك السكنى حق الله تعالى أوجبه للزوجات ، فليس لكم أن تعدوه إلا لضرورة ؛ كانهدام المنزل أو الحريق أو السيل أو خوف الفتنة فى الدين .

( ولا يخرجن ) أى لا تأذنوا لهن فى الخروج إذا طلبن ذلك ، ولا يخرجن بأنفسهن إن أردن ، إذ السكنى فى البيوت حق الشرع ، فلا يسقط بالإذن ، فإن خرجن ليلا أو نهارا كان ذلك الخروج حراما ولا تنتهى العدة .

ثم استثنى من لزوم المسكن فى البيوت ما إذا دعت الضرورة إلى الإخراج فقال :  
( إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ) أى لا يُخرجن إلا إذا فعَلن ما يوجب حدا من زنا أو سرقة أو غيرها كما أخرجه عبد بن حميد عن سعيد بن المسيب ، أو يبدون على الأحماء أو الأزواج ، فيجمل إخراجهن من بيوتهن لبذائهن ، وسوء خلقتهن ، أو خرجن متحولات عن منازلهن اللاتى يجب عليهن أن يكمن العدة فيها ، فأى ذلك فعَلن فلا لزواج إخراجهن من البيوت ، لأنينهن بالفاحشة الواضحة التى ارتكبتها .

( وتلك حدود الله ) أى هذه الأمور التى بينها لكم من الطلاق للعدة ، وإحصاء العدة ، والأمر باتقاء الله ، وألا تخرج المطلقة من بيتها إلا أن تأتى بفاحشة مبينة - هى حدود الله التى حداها لكم ، فلا تعدوها .

ثم بين عاقبة تجاوز تلك الحدود فقال :

(ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) أى ومن يتجاوز ما شرع الله لعباده من شرائع ، وما أبيض له إلى ما لم يُبَحِّح فقد ظلم نفسه وأضرَّ بها من حيث لا يدري .  
ثم بين علة هذا الضرر فقال :

( لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ) أى لا تعلم أيها المرء أن الله يقبب القلوب ، فيجعل في قلبك محبة لها ، فتندم على فراقها ، وتود الرجعة إليها ، فلا يتسنى لك ذلك ، لأن الفرصة تكون قد ضاعت ، وما جرَّ ذلك عليك إلا تعدى حدود الله .

والخلاصة — إن من يتعدَّ حدود الله فقد أساء إلى نفسه ، فإنه لا يدري عاقبة ما هو فاعل ، فلعن الله يحدث في قلبه بعد ذلك الذى فعل من التعدى — أمرا يدعو إلى عكس ما فعل ، فيبدل البغض محبة ، والإعراض إقبالا ، ولا يتسنى له تلافى ذلك برجعة أو استئناف نكاح فتضيع الفرصة ويندم ، ولات ساعة مندم .

### تنبيه

الشريعة الإسلامية — وإن أباحت الطلاق — بغضت فيه وقبحته وبيّنت أنه ضرورة لا يلجأ إليها إلا بعد استنفاد جميع الوسائل لبقاء رباط الزوجية الذى حبّبت فيه وجعلته من أجلّ النعم ، فرغبت في إرسال حكم من أهله وحكم من أهلها قبل حدوث الطلاق ، لعلهما يزلان ما بين الزوجين من نفور ، كما رغبت في أن تكون الطلقات الثلاث متفرقات ، لعل النفوس تصفو بعد الكدر ، والقلوب ترعوى عن غيرها ، ولعلهما يندمان على ما فرط منهما فتكون الفرصة مواتية ، ويمكن الرجوع إلى ما كانا عليه ، بل قد يعودان إلى حال أحسن مما كانا .

روى أبو داود عن محارب بن دثار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :  
« ما أحل الله شيئا أبغض إليه من الطلاق » وروى الثعلبي من حديث ابن عمر قال :  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » .

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تطلقوا النساء إلا من رغبة ، فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات». وعن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس به ، حرّم الله عليها راحة الجنة» أخرجه أبو داود والترمذى .

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ  
وَأَشْهِدُوا ذَوْىَ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ، ذَلِكَ يُؤْخِذُ بِهِ  
مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢)  
وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ  
بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) .

### شرح المفردات

فإذا بلغن أجلهن : أى قاربن انتهاء المدة ، فأمسكوهن : أى فراجعوهن ،  
بمعروف . أى مع حسن عشرة ، أو فارقوهن بمعروف : أى مع إعطاء الحق وإتقاء  
المضارة : كأن يراجعها ثم يطبقها تطويلاً للمدة ، بالغ أمره : أى منفذ حكمه وقضاءه  
فى خلقه يفعل ما يشاء ، قدرا : أى تقديرا وتوقيتا .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بإيقاع الطلاق واحدة فواحدة ، ومنع الخروج من المنزل  
والإخراج منه إلا إذا أتيت بفاحشة مبينة ، ونهى عن تعدى تلك الحدود  
حتى لا يحصل الضرر والندم - خير الرجل إذا شارفت عدة امرأته على الانتهاء  
بين أمرين :

- (١) إما أن يراجعها ويعاشرها بإحسان :
- (٢) وإما أن يفارقها مع أداء حقوقها التى لها مع التفضل والإكرام .
- فإذا اختار الرجعة فليشهد على ذلك شاهدين عدلين قطعاً للنزاع ، ودفعاً للريبة ثم أبان أن هذه الأحكام إما شرعت للمائدة والمصلحة . ثم ذكر قاعدة عامة وهى أن تقوى الله تفتح السبل للمرء وتخرجه من كل ضيق ، وتهديه إلى الطريق المستقيم فى دينه ودنياه ، وأن من يتوكل على ربه ، يكفه ما أمه ، ويفرج عنه كرب .
- ثم ذكر أن أمور الحياة جميعاً بقضاء الله وقدره ، فلا يجزع المؤمن مما يصيبه من النوائب ، ولا يفرح وبطر بما يناله من خيراتها .

### الإيضاح

( فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ) أى فإذا قاربت العدة على الانتهاء فإن شئتم فأمسكوهن وراجعوهن مع الإحسان فى الصحبة وحسن العشرة ، وأداء الحقوق من النفقة والكسوة ، وإن صمتم على المفارقة فتسكن بالمعروف وعلى وجه لا عنف فيه ولا مشاكسة ، مع إبقاء ما لهن من حقوق لديكم كموخر صداق ، وإعطاء متعة حسنة تذكر كن بفضلها ، ويتحدث الناس بحسن أحداثها ، ويكون فيها جبر لخاطرهن ، لما لحقهن من ضرر بالفراق ، وليكون فيها بعض السلوة لهن عما فقدنه من العشير والأنس .

ثم بين ما يحسن إذا أرادوا الرجعة فقال :

( وأشهدوا ذوى عدل منكم ) أى وأشهدوا على الرجعة إن اخترتموها شاهدين من ذوى العدالة ، حسماً للنزاع فيما بعد ، إذ ربما يموت الزوج فيدعى الورثة أن مورثهم

لم يراجع زوجته ، ليمنعوها ميراثها ، ودفعاً للقليل والقال وتهمة الريبة ، وخافة أن تنكر المرأة الرجعة لتفضي عدتها ، وتنكح زوجا غيره .

وهذا الإشهاد واجب عند الشافعي حين الرجعة ، مندوب حين الفقرة ، ويرى أبو حنيفة أن الرجعة لا تقتصر إلى الإشهاد كسائر الحقوق .

ثم خاطب الشهود زجراً لهم فقال :

( وأقيموا الشهادة لله ) أي واشهدوا على الحق إذا استشهدتم ، وأدوا الشهادة على الصحة إذا أنتم دُعيتُم إلى أدائها .

وإنما حث على أداء الشهادة ، لما قد يكون فيه من العسر على الشهود ، إذ ربما يؤدي ذلك إلى أن يترك الشاهد مهامّ أموره ، ولما فيها من عسر لقاء الحاكم الذي تؤدي عنده ، وقد يبعد المكان ، أو يكون للشاهد عوائق تحول بينه وبين أدائها .

( ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ) أي هذا الذي أمرتكم به ، وعرفتكم عنه من أمر الطلاق ، والواجب لبعضكم على بعض حين الفراق أو الإمساك ، عظة منا لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ليعمل على نهجها وطريقتها .

ثم أتى بجملة معترضة بين ما سلف وما سيأتي . لتأكيد ما سبق من الأحكام والخروج من مشاكلا بعد اتقاء الله فقال :

( ومن يتق الله يجعل له مخرجا . ويرزقه من حيث لا يحتسب ) أي ومن يخش الله فلا يطلق المرأة في الحيض حتى لا تطول عدتها ولا يضارّ المعتدة فلا يخرجها من مسكنها ، ويحتاط بالإشهاد حين الرجعة - يجعل الله له مخرجا مما عسى أن يقع فيه من الغم ويفرج عنه ما يعتريه من الكرب ، ويرزقه من جهة لا تخطر بباله ولا يحتسبها .

والخلاصة - من اتقى الله جعل له مخرجا من غم الدنيا وهم الآخرة وغرات الموت وشدائد يوم القيامة .

روى عن ابن عباس أنه قال : « جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله : إن ابني أسره العدو وجزعت أمه ، فبم تأمرني ؟ قال أمرك وإياها أن تستكثرنا من قول : « لاحول ولا قوة إلا بالله » فقالت المرأة : نعم ما أمرك ، فجعلنا يكثران منها . فتعفل عنه العدو فاستاق غنمهم فجاء بها إلى أبيه ، فنزلت هذه الآية » أخرجه ابن مردويه .

وفي الآية إيماء إلى أن التقوى سلك الأمر عند الله ، وبها نيطت السعادة في الدارين ، وإني أن الطلاق من الأمور التي تحتاج إلى فضل تقوى ، إذ هو أبغض الحلال إلى الله ؛ لما يتضمنه من إباحاش الزوجة وقطع الألفة بينها وبين زوجها ، ولما في الاحتياط في العدة من المحافظة على الأنساب وهي من أجل مقاصد الدين ، ومن ثم شدد في إحصاء العدة حتى لا تختلط ويكون أمرها فوضى .

وروى عن ابن مسعود أنه قال : إن أجمع آية في القرآن : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وإن أكبر آية في القرآن فرجا : « وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا » .

( ومن يتوكل على الله فهو حسبه ) أي ومن يكل أمره إلى الله ويفوض إليه الخلاص منه - كفاه ما أهمه في دنياه ودينه ، والمراد بذلك أن العبد يأخذ في الأسباب التي جبلها الله من سننه في هذه الحياة ، ويؤديها على أمثل الطرق ، ثم يكل أمره إلى الله فيما لا يعلمه من أسباب لا يستطيع الوصول إلى علمها ، وليس المراد أن يلقى الأمور على عواهنها ويترك السعي والعمل ويفوض الأمر إلى الله ، فهذا أمر الدين بدليل قوله تعالى : « وَأَعِزُّوا نَفْسَكُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ » وقرئ صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » إلى نحو ذلك مما هو مستفيض في الكتب والسنة .

وروى عن ابن عباس أنه ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال

له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يا غلام إني معامك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

ثم ذكر السبب في وجوب التوكل عليه فقال :

( إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا ) أى إن الله تعالى منفذ أحكامه في خلقه بما يشاء ، وقد جعل لكل شيء مقدارا ووقتا ، فلا تحزن أيها المؤمن إذا فاتك شيء مما كنت تؤمل وترجو ، فالأمور مرهونة بأوقاتها ، ومقدرة بمقادير خاصة ، كما قال : « وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ » .

وَاللَّائِي يَلْتَمِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ أُرْتَبِتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِيضْنَ ، وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٥) ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا ، وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الطلاق السنى إنما يكون في طهر لاوقاع فيه ، ولم يبين مقدار العدة وكان قد ذكر في سورة البقرة التي نزلت قبل هذه أن عدة الحائض ثلاثة قروء ذكر هنا عدة الصغار اللاتي لم يحضن ، والكبار اللاتي يئسن من الحيض ، وأنها ثلاثة

أشهر ، وعدة الحامل وأنها تكون بوضع الحمل سواء كانت مطاقة أو متوفى عنها زوجها .

أخرج الحاكم والبيهقي في جملة آخرين عن أبي بن كعب أن ناسا من أهل المدينة لما نزلت آية البقرة في عدة النساء قالوا لقد بقي من عدة النساء عدد لم تذكر في القرآن ، الصغار والكبار اللاتي قد انقطع عنهن الحيض وذوات الحمل فأنزل الله تعالى في سورة النساء القصرى : « وَاللَّائِي يَدُسُّنَّ » الآية .

وروى أن قوما منهم أبي بن كعب وخلاد بن النعمان « لما سمعوا قوله تعالى : « وَمُطَلَّقَاتٌ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ » قال يارسول الله فما عدة من لا قرء لها من صغر أو كبير ؟ فنزلت : « وَأُولَاتِ الْإِحْمَالِ يَتَرَبَّصْنَ » الآية .

### الايضااح

( واللَّائِي يَدُسُّنَّ من الحيض من نساكنكم إن اربتم فعدتهن ثلاثة أشهر ، واللَّائِي لم يحضن ) أى واللَّائِي بلغن سن اليأس فانقطع حيضهن لسكبرهن بأن بلغن سن الخامسة والخمسين فما فوقها فعدتهن ثلاثة أشهر ، وكذا الصغار اللواتي لم يحضن ، إن شككنكم وجهتهن كيف تكون عدتهن وما قدرها .

( وأولات الأحمال أجلهن ) أن يضعن حملهن أى وعدة الحوامل أن يضعن حملهن سواء كن مطلقات أو متوفى عنهن ، وأزواجهن كما روى عن عمر وابنه ، فقد أخرج مالك والشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبه وابن المنذر عن ابن عمر أنه سئل عن المرأة يتوفى عنها زوجها وهى حامل فقال : إذا وضعت حملها فقد حلت ، فأخبره رجل من الأنصار أن عمر بن الخطاب قال : لو ولدت وزوجها على سريرى لم يدفن حلت . وهكذا روى عن ابن مسعود فقد أخرج عنه أبو داود والنسائى وابن ماجه أنه قال : من شاء لاعنته أن الآية التى فى النساء القصرى « وَأُولَاتِ الْإِحْمَالِ » الآية نزلت بعد سورة البقرة بكذا وكذا شهرا ، وكل مطلقه أو متوفى عنها زوجها فأجلها أن تضع حملها .

وروى أن سُبَيْعَةَ بَسَتْ الْحَرْثَ الْأَسْلَمِيَّةَ كَانَتْ تَحْتَ سَعْدِ بْنِ خَوْلَةَ فَتَوَفَّى عَنْهَا فِي حَبْجَةِ أَوْدَاعٍ وَهِيَ حَامِلٌ فَوَضَعَتْ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، فَاخْتَضَبَتْ وَاكْتَحَلَتْ وَتَزَيَّنَتْ تَرِيدُ الزَّوْجَ ، فَأَنْسَكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، فَسُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « إِنْ تَفْعَلْ فَقَدْ خَلَا أَجَاهَا » .

( ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا ) أى ومن يخف الله ويرهبه ، فيؤدى فرائضه ويحْتَنِبُ نَوَاهِيهِ — يسهل عليه أموره ، ويعمل له من كل ضيق قرجا ، وينزله طريق الهدى فى كل ما يعرض له من المشكلات ، فإن فى قلب المؤمن نورا يهديه إلى حلّ عويصات الأمور .

وفى الآية إيماء إلى فضيلة التقوى فى أمور الدنيا والآخرة ، وأنها الخرج من كل ضيق يعرض للمرء فيهما .

( ذلك أمر الله أنزله إليكم ) أى هذا الذى شرع لكم من الأحكام السالفة فى الطلاق والسكنى والعدة — هو أمر الله الذى أمركم به وأنزله إليكم لتأتمروا به ، وتعاملوا وفق نهجه .

ثم كرر الأمر بالتقوى لأنها ملاك الأمر وعماده فى الدنيا والآخرة فقال : ( ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا ) أى ومن يخف الله فيؤدى فرائضه ويحْتَنِبُ نَوَاهِيهِ — يمح عنه ذنوبه كما وعد بذلك فى كتابه : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ويجزل له الثواب على سيرة الأعمال .

أَمْ كُنْتُمْ هُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَجْدِكُمْ وَلَا تَضَارُّوهُنَّ لِيُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ، وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمَلٍ فَأَنْقِضُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ، فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَاتَّمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ، وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فَمُتْرَضِعُ لَهُ أُخْرَى (٦) لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ

مِنْ سَعَتِهِ ، وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ، لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ، سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) .

### شرح المفردات

من وجدكم : أى من وسعكم ، وقال الفراء : أى على قدر طاقتكم ، ولا تضاروهن : أى فى النفقة والسكنى ، لتضييقوا عليهن : أى لتلجئوهن إلى الخروج بشغل المسكان أو بإسكان من لا يُرِدُن السكنى معه ، ائتمروا : أى تأمروا وتشاوروا ، بمعروف : أى بجميل فى الأجر والإرضاع فلا يكن من الأب مما كسبه ولا من الأم معاسرة ، وإن تعاسرتم : أى ضيق بعضكم على بعض بالمشاققة فى الأجر أو بطلب الزيادة ، قدر عليه : أى ضيق ، آتاه الله : أى أعطاه ، ما آتاه : أى إلا بقدر ما أعطاه من الأرزاق قل أو جل .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقدار العدة للصغار والكبار والحوامل — أرشد إلى ما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة ، ثم أردف ذلك ببيان أن الحوامل لهنّ النفقة والسكنى مدة الحمل بالغة ما بلغت ، فإذا هنّ ولدن وجب لهنّ الأجر على إرضاع المولود ، فإن لم يتفقا عليه أتى بمرضع أخرى يدفع الأب نفقتها ، والأم أحق بالإرضاع إذا هى رضيت بمثل أجرتها ، والنفقة لكل من الموسر والمعسر على قدر ما يتطيق ، فالله لا يكلف نفساً إلا ما تطيق .

### الإيضاح

( أسكنوهنّ من حيث سكنتم من وجدكم ) أى أسكنوا مطلقات نسائكم فى الموضع الذى تسكنون فيه على مقدار حالكم ، فإن لم تجدوا إلا حجرة بجانب

حجرتكم فأسكنوها فيها ، وإنما أمر الرجال بذلك ، لأن السكني نوع من النفقة وهي واجبة على الأزواج .

ثم نهى عن مضارّة المطلقات في السكني فقال :

( ولا تضاروهنّ لتضيّقوا عليهنّ ) أى ولا تستعملوا معهنّ الضرار في السكني بشغل المسكان أو بإسكان غيرهنّ معهنّ ممن لا يجيبهنّ السكني معه ، لتلجئوهنّ إلى الخروج من مساكنهنّ .

ثم بيّن نفقة الحوامل فقال :

( وإن كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يرضعن حملهنّ ) لأنه بالوضع تنقضى العدة ، وهذا حكم المطلقة طلقه بائنة ، أما المطلقة طلقه رجعية فتستحق النفقة وإن لم تكن حاملا .

وقال أبو حنيفة : تجب النفقة والسكني لكل مطلقة وإن لم تكن ذات حمل لما روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في المبتوتة : « لها النفقة والسكني » ، لأن ذلك جزاء الاحتباس وهو مشترك بين الحامل وغيرها .

ثم بين حكم إرضاع الطفل بعد ولادته فقال :

( فإن أرضعن لكم فآتوهنّ أجورهنّ ) أى فإن أرضعن لكم وهنّ طوالق قد بنّ بانهضاء عدتهنّ ، فلهنّ حينئذ أن يرضعن الأولاد ولهنّ أن يمتنعن ، فإن أرضعن فلهنّ أجر المثل ويتفقن مع الآباء أو الأولياء عليه .

وفى هذا إيحاء إلى أن حق الرضاع والنفقة للأولاد على الأزواج ، وحق الإمساك والحضانة على الزوجات .

( واأتمروا بينكم بمعروف ) أى وتشاوروا فيما بينكم أيها الآباء والأمهات في شئون الأولاد بما هو أصلح لهم في أمورهم الصحية والحلقية والثقافية ، ولا تجعلوا المال عقبة

فى سبيل إصلاحهم ، ولا يكن من الآباء مما كسة فى الأجر وسائر النفقات ، ولا من الأمهات معاصرة وإحراج للآباء ، فالأولاد هم فلذات أكبادهم ، فليحافظوا عليهم جهد المستطاع .

ثم أرشد إلى ما يجب أن يعمل إذا لم يحصل الوفاق بين الأبوين فى الإنفاق فقال : ( وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ) أى وإن ضيق بعضكم على بعض بأن شاح الأب فى الأجر ، أو اشتطت الأم فى طلب زيادة لا يؤديها أمثاله ، فيخضّر الأب مرضعا أخرى تقوم بالإرضاع . فإن رضيت الأم بمثل ما استؤجرت به الأجنبية فهي أحق بولدها .

وفى الآية إيماء إلى معاتبة الأم ، فهو كقولك لمن تطلب منه حاجة فيتوانى فى قضائها : إن لم تقضها فسيقضيها غيرك ، وكأنه قال له : إنها ستقضى وأنت مبوم . وإنما خص الأم بالعتاب ، لأن المبدول من جهتها هو لبنها لولدها ، وهو ليس بمال ولا مما يضمن به فى العرف ولا سيما من الأم ، والمبدول من جهة الأب هو المال وهو مضمون به فى العادة ، فهي إذاً أجدر باللوم وأحق بالعتاب .

هذا إذا قبل الولد ثدى مرضع أخرى ، فإن لم يقبل إلا ثدى الأم وجب عليها الإرضاع .

ثم بين مقدار الإنفاق بقوله :

( لينفق ذو سعة من سعته ) أى لينفق الوالد على المرضع التى طلّقت منه بقدر

سعته وغناه .

( ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله ) أى ومن كان رزقه بمقدار القوت لحسب فلينفق على مقدار ذلك .

( لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ) أى لا يكلف الله أحداً من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا بمقدار ما آتاه من الرزق ، فلا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنى .

ونحو الآية قوله : « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » .

ثم بين أن الأرزاق تتحول من عسر إلى يسر والعكس بالعكس فقال :  
( سيجعل الله بعد عسر يسرا ) أى سيجعل الله بعد شدة رخاء ، ومن بعد ضيق  
سعة ، ومن بعد فقر غنى ، فالدنيا لاتدوم على حال كما قال سبحانه : « إِنَّ مَعَ  
الْعُسْرِ يُسْرًا » .

وهذا كالبشرى للمؤمنين الذين كان يغلب عليهم الفقر والفاقة فى ذلك الحين .

وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ خَاسِبَتْهَا حِسَابًا  
شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكَرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ  
أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ  
الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِكُمْ  
آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ  
إِلَى النُّورِ ، وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) .

### شرح المفردات

وكأين من قرية : أى كثير من أهل القرى ، عتت : أى تجهزت وتكبرت ،  
نكراً : أى منكراً عظيماً ، وبال أمرها : أى عاقبة عتوها ، خسراً : أى خسارة  
فى الآخرة ، ذكرراً : أى قرآناً ، رسولا : أى وأرسل رسولا .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر بأن الطلاق لا يكون إلا فى أوقات خاصة ، وبأنه يجب انقضاء العدة حتى تحل المرأة لزواج آخر ، وذكر مدة العدة وما يجب للمعتدة من النفقة والكسوة ، ونهى عن تجاوز حدود الله ، وأن من يتجاوزها يكون قد ظلم نفسه ؛ وتوعد هنا من خالفوا أمره ، وكذبوا رسله ، وسلوكوا غير ما شرعه ، وأنذرهم بأن يحل بهم مثل ما حل بالأمم السالفة التى كذبت رسلها ، فأخذها أخذ عزيز مقتدر ، وأصبحت كأمس الدابر وصارت مثلاً فى الآخرين .

## الإيضاح

(وكأئن من قرية عتت عن أمر ربها ورسله فحاسبناها حساباً شديداً وعذبناها عذاباً نكراً) أى وكثير من أهل القرى خالفوا أمر ربهم ، فكذبوا الرسل الذين أرسلوا إليهم وتجاوزوا فى طغيانهم يعمهون ، فحاسبناهم حساباً عسيراً ، فاستقصينا عليهم ذنوبهم ، وناقشناهم على النقيير والقطمير ، وعذبناهم عذاباً نكراً فى الآخرة ، وعبر بالماضى عن المستقبل دلالة على التحقق كما فى قوله تعالى : « وَنَفِخْ فِي الصُّورِ » .

ثم بين أن هذا جزاء ما كسبت أيديهم فقال :  
(فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسراً) أى فجنت ثمار ما غرست أيديها ولا يُجنى من الشر إلا الشر كما جاء فى أمثالهم : إنك لا تجنى من الشوك العنب . فكان عاقبة أمرها الخسران والنكال الذى لا يقدر قدره .

ثم أكد هذا الوعيد بقوله :  
(أعد الله لهم عذاباً شديداً) أى هياً الله لهم العذاب المرتقب ، لتمامهم فى طغيانهم وإعراضهم عن اتباع الرسل فيما جاءوا به من عند ربهم .  
ثم نبه المؤمنين إلى تقوى الله حتى لا يصيبهم مثل ما أصاب من قبلهم فقال :

(فاتقوا الله يا أولى الألباب الذين آمنوا) أى تخافوا أيها المؤمنون عقاب الله ،  
فأنتم أصحاب العقول الراجحة ، والفطر السليمة ، واحذروا أن يحل بكم مثل ما حل  
بمن قبلكم ، وتذكروا فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

ثم بين ما يكون مذكرا لهم وداعيا لتقوى الله فقال :

(قد أنزل الله إليكم ذكرا . رسولا يتلو عليكم آيات الله مبینات ليخرج الذين  
آمَنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى قد أنزل الله إليكم يادوى البصائر  
ذكرا لكم وهو القرآن الكريم يذكركم به ، لتستمسكوا بحبله المتين وتعملوا بطاعته  
وأرسل إليكم رسولا يتلو عليكم آيات هذا الكتاب الذى أنزل عليه ، وهى  
واضحات لمن تدبرها وعقلها ، كي يخرج من لديه استعداد لاهدى من ظلمات الكفر  
إلى نور الإيمان إذا هو أنعم فى النظر فيها ، وأجال الفكر فى أسرارها ومغازيها ،  
فهى النبراس الساطع ، والضوء اللامع ، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

ثم بين جزاء الإيمان والعمل الصالح فقال :

(ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين  
فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) أى ومن يصدق بالله وعظيم قدرته ، وبديع حكمته ،  
ويعمل بطاعته -- يدخله ساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار ما كثير فيها  
أبدا لا يموتون ولا يخرجون منها ، وقد وسع الله لهم فيها الأرزاق من مطاعم ومشارب  
مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ، يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ  
بَيْنَهُنَّ ، لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ  
شَيْءٍ عِلْمًا (١٢) .

## المعنى الجملى

بعد أن أنذر سبحانه مشركى مكة بأنهم إن لم يتبعوا أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم يحل بساحتهم مثل ما حل بسائر الأمم قبلهم ممن كذبوا رسلهم وعتوا عن أمر ربهم فاستؤصلوا وبادوا فى الدنيا ، وسيحل بهم العذاب الذى لا مرد له فى الآخرة — ذكر هنا عظيم قدرته وسلطانه ، وبديع خلقه للعالم العلوى والسفلى ليكون ذلك باعثا على اتباع ما شرع من الدين ، واستجابة دعوة الرسول ، والعمل بما أنزل عليه من تشريع فيه سعادة الدارين .

## الإيضاح

( الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ) أى الله هو الذى خلق السموات السبع وخلق مثلهن فى العدد من الأرضين .

وهذا الأسلوب فى اللغة لا يفيد الانحصار فى السبعة ، وإنما يفيد الكثرة ، فاعرب تعنى فى كلامها بذكر السبعة والسبعين والسبعائة الكثرة غصب ؛ ويؤيد هذا أن علماء الفلك فى العصر الحاضر قالوا : إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشمس العظيمة التى سميها نجوما لا يقل عن ثلثمائة مليون أرض ، ولا شك أن هذا قول هو باطن أشبه منه باليقين .

روى ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن ، والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن فى الكرسي إلا كحقة ملقاة بأرض فلاة » .

وروى عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى : « سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ » الآية قوله : لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم بتكذيبكم بها .

وهذا من الجبر دليل على أن هناك عوالم كثيرة لا يجدر بالعلماء أن يجددوا عنها العامة ، فإن عقولهم تضل في فهمها ، فلتبق في صدور العلماء وأهل الذكر حتى لا يفتنوا بها .

( ينزل الأمر بينهن ) أى يجرى أمر الله وقضاؤه وقدره بينهن ، وينفذ حكمه فيهن ، فهو يدبر ما فيها وفق علمه الواسع ، وحكمته في إقامة نظمها ، بحسب العدل والمصلحة .

أخرج ابن المذخر وغيره عن قتادة قال : « في كل سماء وفي كل أرض خلق من خلقه تعالى ، وأمر من أمره ، وقضاء من قضائه عز وجل » .

( لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علماً ) أى ينزل قضاء الله وأمره بين ذلك ، كي تعلموا أيها الناس كنه قدرته وسلطانه ، وأنه لا يتعذر عليه شىء أراد ، ولا يمتنع عليه أمر شاء ، فهو على ما يشاء قدير ، ولتعلموا أن الله بكل شىء من خلقه محيط علماً لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر .

نخافوا أيها المخالفون أمر ربكم فإنه لا يمنعه من عقوبتكم مانع ، وهو قادر على ذلك ، ومحيط بأعمالكم لا يخفى عليه منها خاف ، وهو محصيا عليكم ، ليجازيكم بها يوم تجزى كل نفس بما كسبت .

### ما تضمنته هذه السورة من الشؤون

اشتملت هذه السورة على أحكام شرعية ، ومناهج دينية ، وفتاوى إسلامية ، وضعت لإقامة العدل بين الخلق ؛ وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا للحجة من نور العدل العام ، وقبضة من فيضه ، وزهرة من شجرته ، فإن قضى القضاة على كراسى الحكم بين العباد ، فأعطوا زيداً ما يجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، فكم بين السموات والأرض من قضاء في هذا

الفضاء الواسع الصامت لفظاً ، الناطق معنى ، وكـ من حكم بيننا نرى أثره ، ولا نسمع النطق به ، نرى الشمس محكوما عليها أن تطلع من مواضع في المشرق ، وتغيب في مواضع في المغرب لا تجوزها ، ونرى الرياح محكوما عليها ، والسحب مأمورة ، والأنهار جارية ، والمزارع قد حكم عليها أن تكون في زمن خاص ، وأمكنة خاصة ؛ فليس للقطن أن ينبت في البلاد الباردة ، ولا أن يثمر في زمن الشتاء ، ولا للنخل أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وكل ذلك حكم لمصلحة الناس ، ومعادتهم في دنياهم .

فانظر أى الحكيم أكثر منفعة ؟ أحكم لمصلحة أشخاص متنازعين ، أم حكم إسعاده هؤلاء المتنازعين من كل أهل ملة ودين ؟ .

## سورة التحريم

هي مدنية ، وآياتها ثنتا عشرة ، نزلت بعد الحجرات .  
ومناسبتها لما قبلها :

(١) أن سورة الطلاق في حسن معاشرة النساء والقيام بحقوقهن ، وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعليماً لأئمة أن يحذروا أمر النساء ، وأن يعاملوهن بسياسة اللين كما عاملهن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، وأن ينصحوهن نصحاً مؤثراً .

(٢) أن كتيبهما افتتحا بخطاب النبي صلى الله عليه وسلم .

(٣) أن تلك في خصام نساء الأمة ، وهذه في خصومة نساء النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد أفرذن بالدكر تعظيماً لمكانتهن .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ، وَاللَّهُ مَوْلاً كُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ، فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ، فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ، وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَ كُنَّ

أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَاتِنَاتٍ تَأْتِيَنَّاتٍ  
عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) .

## شرح المفردات

تَحْرِمُ : أى تمنع ، ما أحل الله لك : هو العسل ، تَبْتَغَى : أى تطلب ،  
فرض : أى شرع وبين كما جاء فى قوله : « سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا » ، وتحلة  
إيمانكم : أى تحمليها بالكفارة ، وتحلة القسم تستعمل على وجهين :

(١) أحدهما تحميلة بالكفارة كما فى الآية .

(٢) ثانيهما معنى الشئ القليل وهذا هو الأصل أكثر كما جاء فى الحديث : « لن  
يلج النار إلا تحلة القسم » أى إلا زمنا يسيرا .

مولاكم : أى وليكم وناصركم ، بعض أزواجه : هى حفصة على المشهور ، نبأت  
به : أى أخبرت عائشة به ، وأظهره : أى أطلعوه وأعلمه قول حفصة لعائشة ، عَرَفَ :  
أى أعلمها ببعض الحديث الذى أفشته ، وأعرض عن بعض : أى لم يخبرها به ، إن  
تقوبا : أى حفصة وعائشة ، صفت قلوبكما : أى عدات ومات إلى ما يجب للرسول  
صلى الله عليه وسلم من تعظيم وإجلال ، وإن تظاهرا عليه : أى تتظاهرا وتعاونوا  
على إيذاء الرسول ، مولاه : أى وليه وناصره ، ظهور : أى ظهور معاونون ،  
وأنصار مساعدون ، مسلمات : أى خاضعات لله بالطاعة ، مؤمنات : أى مصدقات  
بتوحيد الله لمخلصات ، قاتنات : أى مواظبات على الطاعة ، تأتبات : أى مقلعات عن  
الذنوب ، عابدات : أى متعبدات بمقتضيات لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ،  
سائحات : أى صائمات ، وسمى الصائم بذلك من حيث إن السائح لا زاد معه ،  
ولا يزال ممسكا حتى يجد الطعام ؛ كالصائم لا يزال كذلك حتى يحىء وقت الإفطار .

## المعنى الجملى

روى البخارى ومسلم عن عائشة أنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلوء والعسل ، وكان إذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمشى عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً ، فتواطأت أنا وحفصة أن آيتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له : : إني أجد منك ريح مغافير ، أكلت مغافير ( صمغ خلّو له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرْفُط يكون بالحجاز ) ، فقال لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش وإن أعوذ له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحدا . »

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال إن التى دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرّم على نفسه العسل أمامها هى حفصة فأخبرت عائشة بذلك ، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرها به من الحديث الذى يسرها ويسر عائشة ، أن أباه وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمّتى من بعدى ، فالسر كان لها بأمرين :

(١) تحريم العسل الذى كان يبغيه عند زينب .

(٢) أمر الخلافة لأبويهما من بعده .

## الإيضاح

( يأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ؟ ) أى يأيها النبي .

لم تمتنع عن شرب العسل الذى أحله الله لك ، تلتمس بذلك رضا أزواجك ؟

وهذا عتاب من الله على فعله ذلك ، لأنه لم يكن عن باء مرضى ، بل كان

طلباً لمرضاة الأزواج .

وفى هذا تنبيه إلى أن ما صدر منه لم يكن مما ينبغي لمقامه الشريف أن يفعله .

وفى ندائه صلى الله عليه وسلم بيايها النبي فى مفتتح العتاب حسن تلطف ، وتنويه بشأنه عليه الصلاة والسلام ، على نحو ما جاء فى قوله : « عَمَّا اللَّهُ عَنْكَ لَمْ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ » .

(والله غفور رحيم) أى والله غفور لذنوب التائبين من عباده ، وقد غفر لك امتناعك عما أحله لك ، رحيم بهم أن يعاقبهم على ما تابوا منه من الذنوب وإيماءاته على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليقين أو بدونه ، تعظيماً لقدره الشريف ، وإجلالاً لمنصبه أن يراعى مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله به ، وإيماء إلى أن ترك الأولى بالنسبة إلى مقامه السامى يعدّ كالذنب وإن لم يكن فى نفسه كذلك .

(قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى قد شرع لكم تحليل أيمانكم بالكفارة عنها ، فعليك أن تكفر عن عيبتك . وقد روى «أنه عليه الصلاة والسلام كفر عن عييته فأعتق رقبة (عبداً وأمة)» .

(والله مولاكم) أى والله متولى أموركم بنصركم على أعدائكم ، ومسهل لكم سبل الفلاح فى دنياكم وآخرتكم . ومنير لكم طرق الهداية إلى ما فيه سعادتكم فى معاشكم ومعادكم .

(وهو العليم الحكيم) أى وهو العليم بما يصلحكم فيشرعه لكم ، الحكيم فى تدبير أموركم ، فلا يأمركم ولا ينهىكم إلا وفق ما تقتضيه المصلحة . ثم ساق ما هو كالدليل على علمه فقال :

( وإذ أسرّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً ، فلما نبأت به وظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض ) أى واذكر حين أسر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة أنه كان يشرب عسلاً عند زينب بنت جحش ، وقال لن أعود له وقد حلفت ، لا تخبرى بذلك أحداً ، فلما أخبرت عائشة بما استكتمها من السر ، وأطلعه الله على ما دار بين حفصة وعائشة بما كان قد طالب من حفصة أن تكتمه — أخبر حفصة

ببعض الحديث الذى أفشته وهو قوله لها : كنتُ شربت عسلاً عند زينب بنت جحش فلن أعود ، وأعرض عن بعض الحديث وهو قوله وقد حلفت ، فلم يخبرها به تكريماً منه ، لما فيه من مزيد خجلتها ، ولأنه صلى الله عليه وسلم ما كان يود أن يشاع عنه اهتمامه بمرضاة أزواجه إلى حد امتناعه عن تناول ما أحل الله له .

( فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا ؟ قال نبأنى العليم الخبير ) أى فلما أخبر حفصة بما دار بينها وبين عائشة من الحديث ، قالت من أنبأك بهذا ؟ ظناً منها أن عائشة قد فضحتها بإخبارها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أخبرنى ربى العليم بالسر والنجوى ، الخبير بما فى الأرض والسماء لا يخفى عليه شئ ، فيهما .

وفى الآية إيماء إلى أمور اجتماعية هامة :

(١) أنه لا مانع من الإباحة بالأسرار إلى من تركز إنيه من زوجة أو صديق .

(٢) أنه يجب على من استكتم الحديث أن يكتمه .

(٣) أنه يحسن التلطف مع الزوجات فى العتب والإعراض عن الاستقصاء

فى الذنب .

ثم وجه الخطاب لحفصة وعائشة مبالغة فى العتب فقال :

( إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما ) أى إن تتوبا من ذنبكما وتقمأما عن مخالفة

رسوله صلى الله عليه وسلم فتجباً ما أحب وتكرها ما كرهه — فقد مالت قلوبكما إلى الحق والخير ، وأديتما ما يجب عليكما نحوه صلى الله عليه وسلم من إجلال وتكريم لمنصبه الشريف .

روى عن ابن عباس أنه قال : لم أزل حريصاً أن أسأل عمر رضى الله عنه عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله لهما « إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ » الآية .

حتى حج عمر وحجبت معه ، فلما كان ببعض الطريق نزل ليتوضأ فصبيت على يديه ، فقلت يا أمير المؤمنين : من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان

قال الله لها « إِنَّ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ » الآية ؟ فقال وأعجباً لك يا بن عباس هما عائشة وحفصة ، ثم أخذ يسوق الحديث .

ثم ذكر سبحانه أنه حافظه وحارسه فلا يضره أذى مخلوق فقال :

( وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه ، وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير ) أى وإن تعاونا على العمل لما يؤذيه ويسوءه من الإفراط في الغيرة وإفشاء سره — فمن يضره ذلك شيئاً ، فإن الله ناصره في أمر دينه وسائر شئونه على كل من يتصدى لما يكرهه ، وجبريل والمؤمنون الصالحون والملائكة مظاهرون له ومعينون .

وقد أعظم سبحانه شأن النصرة لنبيه على هاتين الضعيفتين ، للإشارة إلى عظم مكر النساء ، والمبالغة في قطع أطعهما بأنه ربما شفع لهما مكاتهما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وعند المؤمنين لأموتهما لهم ، وكرامة له صلى الله عليه وسلم ورعاية لأبويهما ، ولتوهين أمر تظاهرها ، ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره في أمر النبوة ، وقهر أعداء الدين ، إذ قد جرت العادة بأن الشئون المنزلية تشغل بال الرجال وتضيع رمنا من تفكيرهم فيها ، وقد كانوا أحق به في التفكير فيما هو أجدى نفعاً ، وأجل فائدة .

ثم حذرهما بما يلين من قناتهما ، ويخفض من غلوائهما ، ويطمئن من كبريائهما فقال :

( عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ساجدات ثيبات وأبكارا ) أى عسى الله أن يعطيه ( صلى الله عليه وسلم ) بدلكن أزواجا خيرا منكن إسلاما وإيمانا ، ومواظبة على العبادة ، وإقلاعا عن الذنوب ، وخضوعا لأوامر الرسول ، بعضهن ثيبات وبعضهن أبكارا ، إن هو قد طلقكن .

والخلاصة — احذرن أيتها الأزواج من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم والتألب عليه ، والعمل على مايسوؤه ، فإنه ربما أخرج صدره فطلقكنَّ فأبدله الله من هو خير منكنَّ في الدين والصلاح والتقوى ، وفي الشؤون الزوجية ، فأعطاه بعضهنَّ أبكارا وبعضهنَّ ثيبات .

ولاشيء أشد على المرأة من الطلاق ، ولا سيما إذا استبدل خير منها بها .

روى البخارى عن أنس قال : قال عمر : اجتمع نساء النبي صلى الله عليه وسلم في الغيرة عليه ، فقالت : عسى ربه إن طلقكنَّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنَّ فنزلت هذه الآية .

وروى عن أنس عن عمر قال : بلغني عن بعض أمهاتنا أمهات المؤمنين شدة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأذاهنَّ إياه ، فاستقرت بهنَّ امرأة امرأة أعطاها وأنهاها عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقول : إن أبيتنَّ أبدله الله خيرا منكنَّ حتى أتيت على زينب ، فقالت يابن الخطاب : أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظون أنت فأمسكت ، فأنزل الله : « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » الآية .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ، عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاطٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ

نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ نَا ،  
وَاعْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) .

### شرح المفردات

قوا أنفسكم : أى اجملوا لها وقاية من النار بترك المعاصي ، وأهليكم : أى بجمعهم  
على ذلك بالنصح والتأديب ، والوقود ( بفتح الواو ) : ما توقد به النار ، والحجارة :  
هى الأصنام التى تعبد لقوله تعالى : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ  
جَهَنَّمَ » ملائكة : هم خزنتها التسعة عشر ، غلاظ : أى غلاظ القلوب لا يرحمون  
إذا استزحجوا ، شداد : أى أقوياء الأبدان ، والتوبة النصوح : هى الندم على مافات  
والعزم على عدم العودة إلى مثله فيما هو آت .

### المعنى الجملى

بعد أن أمر بعض نساء النبى صلى الله عليه وسلم بالتوبة عما فرط من الزلات ،  
وأبان لهم أن الله كالى رسوله وناصره ، فلا يضره تظاهره عليه ، ثم حذرهن من  
التمادى فى مخالفته صلى الله عليه وسلم خوفا من الطلاق وحرمانهم من الشرف العظيم  
بكونهن أمهات المؤمنين ومن استبداهن بغيرهن من صالحات المؤمنات — أمر  
المؤمنين عامة بوقاية أنفسهم وأهليهم من نار وقودها الناس والحجارة يوم القيامة ،  
يوم يقال للكافرين : لا تعتذروا فقد فات الأوان ، وإنما تلقون جزاء ما عملتم  
فى الدنيا ، ثم أمر المؤمنين أن يقلعوا عن زلاتهم ، وأن يتوبوا توبة نصوحا ، فيندموا  
على ما فرط منهم من المفوات ، ويعزموا على عدم العودة فيما هو آت ، ليكفر الله  
عنهم سيئاتهم ويدخلهم جنات النعيم .

## الإيضاح

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ) أَيُّ أَيُّهَا الَّذِينَ صَدَّقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ : لِيُعْلِمَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مَا تَقُومُونَ بِهِ النَّارُ وَتَدْفَعُونَهَا عَنْكُمْ ، إِنَّهُ طَاعَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَامْتِثَالُ أَمْرِهِ ، وَلِتَعْلَمُوا أَهْلِيكُمْ مِنَ الْعَمَلِ بِطَاعَتِهِ مَا يَقُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا ، وَاحْلُومُوا عَلَى ذَلِكَ بِالنَّصِيحِ وَالنَّادِبِ .

وَنَحْوُ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا » وَقَوْلُهُ : « وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ » .

رَوَى أَنَّ عُمَرَ قَالَ حِينَ نَزَلَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ : نَقَى أَنْفُسَنَا ، فَكَيْفَ لَنَا بِأَهْلِينَا ؟ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ « تَنْهَوْنَهُنَّ عَمَّا نَهَاكَمُ اللَّهُ عَنْهُ ، وَتَأْمُرُونَهُنَّ بِمَا أَمَرَكَمُ اللَّهُ بِهِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ وَقَايَةً بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ النَّارِ » .

أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذَرِ وَالْحَاكِمُ فِي جَمَاعَةِ آخَرِينَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ فِي الْآيَةِ : عَلِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيَكُمْ الْخَيْرَ وَأَدَّبُوهُمْ .

وَالْمُرَادُ بِالْأَهْلِ مَا يَشْمَلُ الزَّوْجَةَ وَالْوَلَدَ وَالْعَبْدَ وَالْأَمَةَ .

وَفِي الْآيَةِ إِيمَاءٌ إِلَى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الرَّجُلِ تَعَلُّمُ مَا يَحِبُّ مِنْ فَرَائِضِ الدِّينِ وَتَعْلِيمُهَا لِهَوْلَاءِهِ ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَالَ يَا أَهْلَاهُ : صَلَاتُكُمْ ، صِيَامُكُمْ ، زَكَاةُكُمْ ، مَسْكِينَتُكُمْ ، يَتِيمَتُكُمْ ، جِيرَانَتُكُمْ ، لَعَلَّ اللَّهَ يَجْمَعُكُمْ مَعَهُمْ فِي الْجَنَّةِ » .

( عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ ) أَيُّ مُوَكَّلَةٌ عَلَيْهَا وَيَلِي أَمْرَهَا وَتُعَذِّبُ أَهْلَهَا تِسْعَةَ عَشَرَ مَلَكًا هُمْ زَبَانِيَتُهَا الَّذِينَ سَيَّأَتْ ذِكْرَهُمْ فِي سُورَةِ الْمَدْثَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : « سَاءَ صَاحِبُ مَقَرٍّ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ . لَا تُبْقِي وَلَا تَنْدَرُ . لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ » .

( غِلَظُ شَدَادٍ ) أَيُّ غِلَظٌ عَلَى أَهْلِ النَّارِ أَشَدَّاءَ عَلَيْهِمْ .

ثم بين عظيم طاعتهم لربهم فقال :

( لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ) أى لا يخالفون أمره ، بل يؤدون ما يؤمرون به فى وقته بلا تراخ فلا يقدمونه عنه ولا يؤخروه .

وقد أفادت الجملة الأولى نفي العناد والاستكبار عنهم فهى كقوله : « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ » وأفادت الجملة الثانية نفي الكسل عنهم فهى كقوله تعالى : « وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ » .

وخلاصة ذلك — إنهم يمثلون الأمر ولا يمتنعون عن تنفيذه ، بل يؤدونه من غير تناقل ولا توان .

وبعد أن ذكر شدة العذاب فى النار واشتداد الملائكة فى الانتقام من أعداء الله الكافرين — بين أنه يقال للكافرين لافائدة فى الاعتذار لأنه توبة ، والتوبة غير مقبولة بعد الدخول فى النار فقال :

( يأيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم ) فقد فات الأوان ، ولا يجدى رجاء ولا اعتذار ، فلات ساعة مندم .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرّعة مبتغيه وخيم

ثم بين السبب فى عدم فائدة الندم فقال :

( إنما تجزون ما كنتم تعملون ) أى لأنكم إنما تشابون اليوم وتعطون جزاء أعمالكم التى عملتموها فى الدنيا ، فلا تطلبوا المعاذير منها .

والخلاصة — إن هذه الدار دار جزاء لادار عمل ، وأنتم قد دسّيت أنفسكم فى الدنيا بالكفر والمعاصى بعد أن نهيتم عنها ، فاجنوا ثمر ما غرستم ، واشربوا من الكأس التى قد ملأتم .

وبعد أن ذكر أن التوبة فى هذا اليوم لا تجدى نفعا — نبّه عباده المؤمنين إلى المبادرة بالتوبة النصوح فقال :

(يأيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله : ارجعوا من ذنوبكم إلى طاعة الله وإلى ما يرضيه عنكم — رجوعا لاتعودون فيه أبدا ، عسى ربكم أن يحو سيئات أعمالكم التى سلفت منكم ، ويدخلكم بساتين تجري من تحت أشجارها الأنهار حين لا يخزي الله محمدا صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : التوبة النصوح أن يقدم العبد على الذنب الذى أصابه ، فيعتذر إلى الله ثم لا يعود أبدا ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع ، وهكذا روى عن عمرو بن مسعود وأبى بن كعب والحسن وغيرهم .

وقال الإمام النووي : التوبة النصوح ما استجمعت ثلاثة أمور :

(١) الإقلاع عن المعصية .

(٢) الندم على فعلها .

(٣) العزم الجازم على ألا يعود إلى مثلها أبدا .

فإن كانت المعصية تتعلق بآدمى وجب رد الظلامة إلى صاحبها أو وارثه ، أو تحصيل البراءة منه .

والخلاصة — إن المعصية إن كانت فى خالص حق الله كفى فيها الندم كما فى القرار من الزحف وترك الأمر بالمعروف ، وإن تعلقت بحقوق العباد لزم مع الندم العزم على إيصال حق العبد أو بدله إليه إن كان الذنب ظاهرا كما فى الغصب والقتل العمد ، والاعتذار إليه إن كان إيذاء كما فى الغيبة إذا بلغته ، ولا يلزم تفصيل ما اغتابه به إلا إذا بلغه على وجه أخفش .

وحىء بكلمة (عسى) التى تفيد الطمع فى حصول العفو فحسب ، مع أن الله سبحانه وعد بقبول التوبة — جريا على سنن الملوك فى التخطب ، فإنهم يقولون

إذا أرادوا فعلا : عسى أن نفعل كذا ، وإشمارا بأن ذلك تفضل منه سبحانه ، والتوبة غير موجبة له ، وأن العبد ينبغي أن يكون بين خوف ورجاء ، وإن بالغ في إقامة وظائف العبادة .

ثم بين ما يكون للنبي والذين آمنوا معه من علامات الظفر والفوز بالمطلوب فقال : ( نورهم يسمى بين أيديهم وبأيامهم ) أى نورهم يسعى بين أيديهم حين يمشون وبأيامهم حين الحساب . لأنهم يؤتون الكتاب بأيامهم وفيه نور وخير لهم .

ثم بين ما يطلبونه من ربهم فقال :

( يقولون : ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا ) أى يسألون ربهم أن يبقى لهم نورهم فلا يطفئه حتى يجوزوا الصراط ، حين يقول لهم المنافقون والمنافقات : انظرونا نقتبس من نوركم ، وقد تقدم نحو هذا في سورة الحديد ، ويطلبون أيضا منه أن يستر عليهم ذنوبهم ، ولا يفضحهم بعقوبتهم عليها ، حين الحساب .

ثم ذكروا ما يطمعهم في إجابة الدعاء فقالوا :

( إنك على كل شيء قدير ) أى إنك على إتمام نورنا ، وغفران ذنوبنا ، وكل ما رجو منك ونطمع — قدير ياربنا ، فاللهم أجب دعاءنا ، ولا تخيب رجاءنا .

وقد روى أن أدنانهم منزلة من يكون وره بقدر ما يبصر موطى قدمه ، لأن النور على قدر العمل .

وروى أن السابقين إلى الجنة يمرون على الصراط مثل البرق ، ويمر بعضهم كالريح ، وبعضهم يحبو حبواً ويزحف زحفاً ، وهم الذين يقولون : « رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا » .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ (٩) .

## شرح المفردات

الجهاد تارة يكون بالسيف وأخرى بالحجة والبرهان ، واغلظ عليهم : أى شدد ،  
والمأوى : مكان الإيواء والإقامة .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه المؤمنين بالتوبة النصوح والرجوع إلى الله والإخبات إليه .  
أمر رسوله بقتال الكفار الذين يقفون في سبيل الدعوة إلى الإيمان بالله ، وبوعيد  
المنافقين والغلاة عليهم حتى يشوبوا إلى رشد ، وذكر أن جزاءهم في الآخرة جهنم  
وبئس المقييل والمأوى .

## الإيضاح

( يأياها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ) أى جاهد الكفار بالسيف  
وقاتلهم قتالاً لا هوادة فيه ، وجاهد المنافقين بالإندار والوعيد وبيان سوء المنقلب ،  
وعنفهم بفضيحة عاجلة تبين قبح طواياهم وخبث نفوسهم ، كما حدث منه صلى الله  
عليه وسلم في المسجد الجامع لبعض المنافقين على ملأ من الناس فقال : اخرج يا فلان ،  
اخرج يا فلان ، وأخرج منهم عدداً كثيراً .  
ثم بين سوء عاقبتهم فقال :

( وماؤاهم جهنم وبئس المصير ) أى وسيكون مسكنهم جهنم وبئس  
المثوى والمقييل .

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةٌ نُوحٍ وَامْرَأَةٌ لُوطٍ كَانَتَا  
تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا

وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَائِمِينَ (١٢) .

## شرح المفردات

ضرب المثل : ذكر حال غريبة لتعرف بها حال أخرى تشاكلها في الغرابة ، تحت عبيد : أى فى عصمتهم ، نخانتها : أى نافقتنا فأخفنا الكفر وأظهرنا الإيمان ، وكانت امرأة نوح تقول لقومه : إنه مجنون ، وامرأة لوط نزل قومه على نزول أضيافه عليه ، فلم يغنيا عنهما : أى لم يفيداها ولم يحزيا عنهما من الله شيئا ، امرأة فرعون : على ما قيل هى آسية بنت مزاحم ، نجى من فرعون وعمله : أى خلصنى منه فإنى أبرأ إليك منه ومن عمله ، والقوم الظالمون : هم الوثنيون أقباط مصر ، وأحصنت فرجها : أى حفظته وصانته ، والفرج : شق جيب الدرع ( القميص ) إذ الفرج لغة كل فرجة بين الشيئين ، ويراد بذلك عمتها ، وكلمت ربها : أى شرائعها وكتبه التى أنزلها على رسله ، والقائمين : أى الطائعين الخبيطين إلى الله الممثلين أو امره .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر عباده المؤمنين بالتوبة النصوح بالندم على ما فات ، وعدم العودة فيها هوأت ، وأمر رسوله بجهاد الكافرين والمنافقين والغلبة لهم فى القول والعمل . ذكر هنا أن النفوس إن لم تكن مستعدة لقبول الإيمان ، وفى جوهرها صفاء ونقاء

فلا تجدى فيها العظة والعبرة ولا مخالطة المؤمنين المتقين ، وضرب لذلك المثل بامرأة نوح وامرأة لوط فقد كانتا في بيت النبوة ولم يلن قلبهما للإيمان والإسلام .

كذلك إذا كان جوهر النفس نقيا خالصا من كدورة الكفر والنفاق فمحاورتها للكفرة وعشرتها أيام لا تغير من حالها شيئا ، ولا يؤثر فيها ضلال الضالين ولا عتو الظالمين ، وضرب لذلك مثل امرأة فرعون التي ألحفت عليها فرعون وقومه أن تعتنق الوثنية التي كانوا يدينون بها ، وتعتقد ألوهيته هو فأبت وجاهدت في الله حق جهاده حتى لاقت ربها وهي آمنة مطمئنة قريرة العين بما دخل في قلبها من نور الإيمان ، وكذلك مريم بنت عمران التي عفت فأتاها الله الشرف والكرامة ، وأنجبت نبي الله عيسى ، وصدقت بجميع شرائعه وكتبه وكانت من العابدين القانتين .

وفي هذا المثل إيماء إلى أن قرابة المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم لا تجديهم نفعا بعد كفرهم وعداوتهم له وللمؤمنين ، فإن الكفر قد قطع العلائق بينه وبينهم وجعلهم كالأجانب ، بل أبعد منهم كحال امرأة نوح وامرأة لوط لما خانتاهما ، كما تضمن التعريض بأذى المؤمنين حفصة وعائشة لما فرط منهما ، والتحذير لهما على أغلظ وجه وأشدّه .

## الإيضاح

( ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين ) أى ضرب الله مثلا يبين به حال الكافرين الذين لم ينتفعوا بعظات المؤمنين الصادقين من النبيين والمرسلين اظلمة قلوبهم وسوء استعدادهم وفساد فطرتهم — امرأة نوح وامرأة لوط إذ كانتا في عصمة نبيّين يمكنهما أن ينتفعا بهديهما ويحصلّا مافيه سعادتهما في معاشهما ومعادها ، لكنهما أبتا ذلك وعمتا مايدل على الخيانة والكفر ، فانهمت الأولى زوجها بالجنون ، وكانت الثانية ترشد قوم لوط إلى ضيوفه لماكرب خبيثة ،

فلم يدفع عنهما قريهما من ذبذك العبدین الصالحین شیئا ، وحق بهما سوء ما عملتا  
وسيجل بهما عقاب الله ، وسيدخلان النار في زمرة داخلها جزاء وفاقا لما اجترحتا من  
السيئات ، وما دستا به أنفسهما من كبير الآثام ، وعظيم المعاصي .

وفي هذا تعريض بأهات المؤمنين ، وتخويف لهن بأنه لا يفيدهن — إن أتین  
بمعصية — اتصاھن بالنبي صلى الله عليه وسلم وكونهن في عصمته .

وبعد أن ضرب مثلا يبين به أن وصلة الكافرين بالمؤمنين لا تفيدهم شيئا .  
أرشد إلى عكس هذا فأفاد أن اتصال المؤمنين بالكافرين لا يضرهم شيئا فقال :

( وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتا  
في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين ) أى وجعل الله حال امرأة  
فرعون مثلا يبين به أن وصلة المؤمنين بالكافرين لا تضرهم شيئا إذا كانت النفوس  
خالصة من الأكدار ، فقد كانت تحت أعدى أعداء الله في الدنيا ، وطلبت النجاة  
منه ومن عمله ، وقالت في دعائها : رب اجعلني قريبا من رحمتك ، وابن لي بيتا  
في الجنة ، وخصني من أعمال فرعون الخبيثة ، وأتقذني من قومه الظالمين .

وفي هذا دليل على أنها كانت مؤمنة مصدقة بالبعث ، ومن سن الله أن لا تزور  
وازره وزر أخرى ، وأن لكل نفس ما كسبت ، وعليها ما اكتسبت .

( ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات  
ربها وكتبه وكانت من القانتين ) أى وضرب الله مثلا للذين آمنوا حال مريم  
وما أوتيت من كرامة الدنيا وكرامة الآخرة ، فاصطفاها ربها مع أن أكثر قومها  
كانوا كفارا ، من قبل أنها منعت جيب درعها جبريل عليه السلام وقالت له :  
« إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا » فأثبتت بذلك عفتها وكال طهارتها ،  
فنفخ جبريل في جيب درعها فحملت بنبي الله وكملة عيسى صلوات الله عليه ، وصدقت  
بشرائع الله وكتبه التي أنزلها على أنبيائه ، وكانت في عداد القانتين العابدين المحبتين  
لربهم المطيعين له .

روى أحمد في مسنده: «سيدة نساء أهل الجنة مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم عائشة» وفي الصحيح «كُلُّ من الرجال كثير ولم يكُل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وفضل عائشة كفضل الثريد على سائر الطعام» .

وإنما فضل الثريد لأنه مع اللحم غذاء جامع بين اللذة وسهولة التناول وقلة المثونة في المضغ وسرعة المرور في المرء، فضربه مثلاً ليؤذن بأنها رضى الله عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق، وفصاحة الكلام، وجودة القريحة، ورزانة الرأي، ورصانة العقل، والتحجب للبعث، وبحسبك أنها عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يعقل غيرها من النساء، وروت ما لم يرو مثله الرجال .

### ما تضمنته هذه السورة

اشتملت هذه السورة على شيئين :

(١) أخبار نساء النبي صلى الله عليه وسلم، وحلفه صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل لإرضاء لبعضهن، وإطلاع الله له على ما أفشين من سرٍّ أمرهنَّ بكتمه، من أول السورة إلى قوله: «وَمَا أَوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» .

(٢) ضرب المثل بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام .  
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وكان الفراغ من مسودة هذا الجزء بحلول من أرباض القهرة كورة الديار المصرية في العشرين من شهر رمضان المعظم من سنة خمس وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة .

## فهرست

### أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

لبحث

الصفحة

- ٥ ما قالته خولة بنت ثعلبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم تشكو زوجها .
- ٧ أحكام الظهار والعقوبات التي شرعت لذلك .
- ٩ من يشاق الله ورسوله يلحقه الخزي والهوان .
- ١١ ما يتناجى ثلاثة إلا والله رابعهم ولا خمسة إلا والله سادسهم .
- ١٢ كان اليهود يحيمون الرسول بغير تحية الله استهزاء به .
- ١٤ نهى المؤمنين عما سيكون سببا للتبغض من التناجى بالعدوان .
- ١٦ كان الصحابة يتنافسون في القرب من مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لسماع حديثه .
- ١٨ أمر المؤمنين بتقديم الصدقات قبل مناجاة الرسول والحديث معه .
- ٢١ كان قوم من المنافقين يوادون اليهود ويطلعونهم على أسرار المؤمنين .
- ٢٥ المنافقون شاقوا الله ورسوله فكاتب عليهم الذلة في الدنيا والآخرة .
- ٢٧ لا يجتمع إيمان مع موادة أعداء الله .
- ٢٨ اللهم لاتجعل لفاجر ولا لغاش على يدا ولا نعمة فيوده قلبي .
- ٣٢ نقض اليهود للعهد وإجلاء الرسول صلى الله عليه وسلم لهم إلى بلاد الشام
- ٣٤ قذف الله الرعب في قلوب اليهود فلم يجدوا للمقاومة سبيلا .
- ٣٧ حكم ما أخذ من أموال اليهود .

المبحث

الصفحة

- ٣٩ ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا .
- ٤١ مدح الأنصار .
- ٤٤ « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .
- ٤٧ مناصحة المنافقين كعبد الله بن أبي ورقفته لليهود .
- ٤٩ نكوص المنافقين في عهدهم لليهود .
- ٥٣ نصح المؤمنين بلزوم التقوى والعمل بما يفهمهم في دنياهم وأخراهم .
- ٥٤ من مواعظ أبي بكر رضى الله تعالى عنه .
- ٥٦ القرآن الكريم مرشد وهاد .
- ٦١ ما فعله حاطب بن أبي بلتعة من نصيحته للمشركين .
- ٦٣ ذكر الموانع التي تمنع من مناصحة المشركين .
- ٦٥ أمر الصحابة بأن يتأسوا بإبراهيم عليه السلام وأصحابه .
- ٦٦ كان بعض المؤمنين يدعون لأبائهم الذين ماتوا على الكفر فنهوا عن ذلك .
- ٦٩ وعد المؤمنين بأنه سيغير من طباع المشركين ويغرس في قلوبهم محبة الإسلام .
- ٧١ الكافرون المعاندون أقسام ثلاثة .
- ٧٣ كتاب الصلح بين النبي صلى الله عليه وسلم والمشركين عام الحديبية .
- ٧٥ مبايعة المؤمنين المهاجرات للنبي صلى الله عليه وسلم .
- ٧٧ كان بعض فقراء المؤمنين يخبرون اليهود بأخبار المسلمين ليصيبوا من ثمارهم .
- ٨٠ أحب الأعمال إلى الله إيمان به ، وجهاد لأهل معصيته .
- ٨١ أمر المؤمنين بالقتال صفاء كآلتهم بنيان مرصوص .
- ٨٤ ما جاء في التوراة والإنجيل من البشارة بمحمد عليه الصلاة والسلام .

- ٨٧ الصادّ عن دعوة الدين كمن يريد إطفاء نور الشمس .
- ٨٨ فرح اليهود ببطء نزول الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم .
- ٨٩ الإيمان بالله والجهاد بالنفس تجارة رابحة .
- ٩٠ الجهاد على ضروب .
- ٩١ رفعت الراية الإسلامية على جميع المعمور من الأرض في زمن وجيز .
- ٩٤ الحكمة في إرسال الرسول غربيا إلى العرب .
- ٩٦ « لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من فارس » .
- ٩٧ النعى على المشركين بأنهم لم يفهموا التوراة .
- ٩٩ آية المباهلة .
- ١٠١ نهى المؤمنين عن تشاغلهم عن عظات النبي صلى الله عليه وسلم .
- ١٠٢ أمر المؤمنين أن يأتوا إلى الصلاة وعليهم السكينة .
- ١٠٢ مراقبة الله تنيل الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة .
- ١٠٦ وصف الله سبحانه المنافقين بأقبح الصفات .
- ١٠٧ كانت غدة المنافقين الإيمان الكاذبة .
- ١٠٨ وصف المنافقين بحسن المنظر وقبح المخبر .
- ١١٠ ذكر الأدلة على نفاق المنافقين .
- ١١٣ ما فعله عبد الله بن عبد الله بن أنى المنافق .
- ١١٥ نهى المؤمنين عن تشاغلهم بالدنيا .
- ١١٩ الإنسان يضم روحا من عالم الأرواح وبدنا من عالم الأشباح .
- ١٢١ تحذير المشركين من تماديهم في الجحود وإنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

## المبحث

## الصفحة

- ١٢٣ إقامة الأدلة على أن البعث حق لا شك فيه .
- ١٢٦ ما يصيب الإنسان من خير وشر فهو بقضاء الله وقدره .
- ١٢٧ على المؤمن واجبان : السعى في جلب الخير ودفع الضر ، ثم التوكل على الله .
- ١٢٨ من الأولاد والزوجات أعداء للإنسان يثبطونهم عن الطاعة .
- ١٣٠ في الحديث « إن لكل أمة فتنة وإن فتنة أمتي المال » .
- ١٣١ من يقرض غير ظلوم ولا عديم ؟ الحديث .
- ١٣٤ الأمر بالطلاق في الطهر الذي يحسب للمرأة .
- ١٣٥ الطلاق أقسام ثلاثة .
- ١٣٦ أمر المطلقة بالملكث في البيت إلا أن تأتي بفاحشة مبينة .
- ١٣٧ « إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق » الحديث .
- ١٤١ قصص عوف بن مالك الأشجعي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١٤٢ عدة الصغار اللاتي لم يحضن والكبار اللاتي يؤسن من الحيض .
- ١٤٣ عدة الحامل وضع الحمل ولو بعد ساعة .
- ١٤٥ ما يجب للمعتدة من النفقة والسكنى على مقدار الطاقة .
- ١٤٦ نفقة الحوامل .
- ١٤٧ القدر الواجب في النفقة .
- ١٤٩ لا تحل المطلقة لزوج آخر إلا بعد انقضاء عدتها .
- ١٥٢ ما تضمنته سورة الطلاق من الأحكام الشرعية والشئون الدينية .
- ١٥٦ في الحديث « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخلواء والعسل » .
- ١٥٧ أمر النبي صلى الله عليه وسلم إلى حفصة حديثاً فأخبرت به عائشة .

- ١٥٨ لا حرج في الإباحة بالسر إلى من تركن إليه من زوجة أو صديق .
- ١٦٠ تحذير أمهات المؤمنين من إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١٦٣ الآخرة دار جزاء لا دار عمل .
- ١٦٤ شروط التوبة النصوح .
- ١٦٦ الأمر بقتال المشركين الذين يقفون في سبيل الدعوة إلى الإيمان .
- ١٦٧ النفوس إن لم يكن في جواهرها صفاء لا تنفع فيها العظة .
- ١٦٩ ضرب المثل بامرأة فرعون ومريم ابنة عمران .
- ١٧٠ في الحديث « كل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع » .